تاريخ الأمة القبطية

"يعقوب نخلة روفيله"

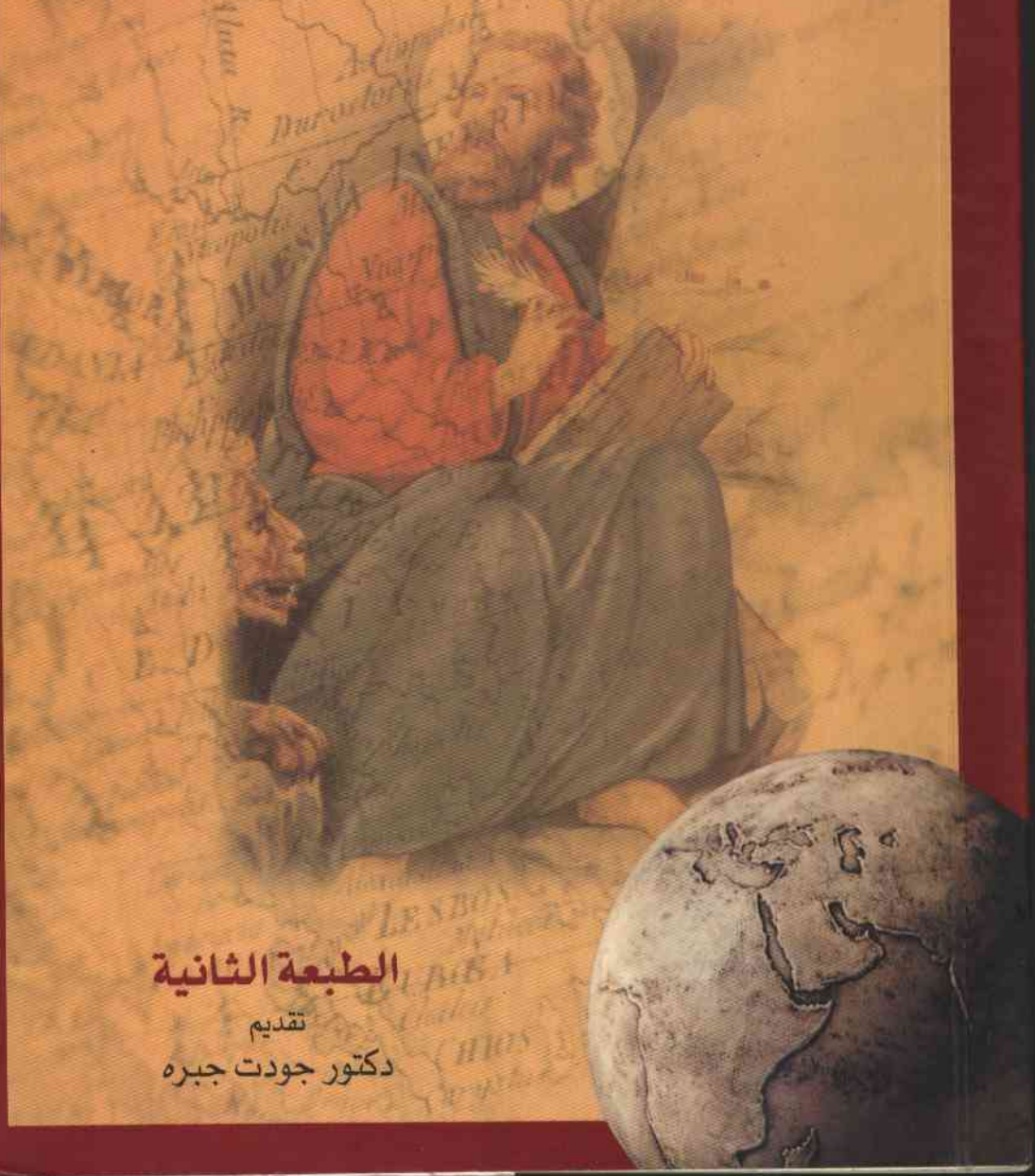

الطبعة الثانية

تقديم

دكتور جودت جبره

﴿ محتويات الكتاب ﴾

	صفحة
مقدمة الطبعة الثانية	م أ
مقدمة المؤلف	٢
أصل الأقباط	٣
المصريين قبل الدولة الفراعنة وديانتهم	٦
تأسيس المملكة الفرعونية	١١
إستيلاء الفرس على مصر	١٥
ظهور الأسكندر الأكبر	١٦
مصر في عهد الدولة اليونانية	١٧
الأقباط تحت حكم الرومانيين	٢٣
الأقباط في صدر الأسلام	٥٠
القبط في عهد الدولة الأموية	٦٢
القبط في عهد الدولة العباسية	٨١
القبط في عهد الدولة الفاطمية	١٠٦
خلافة الحاكم بأمر الله	١١٣
الخليفة المستنصر بالله	١٣١
إنعقاد مجمع اكليريكي بأمر أمير الجيوش بدر الجمالي	١٤٦
ظهور مصلحين	١٤٩
مصائب القبط بسبب حروب الصليبيين	١٥٧
القبط في عهد الدولة الأيوبية	١٦٩

مشاهير القبط فى زمن الدولة الأيوبية	١٨٣
داود بن لقلق الراهب الفيومي	١٩٠
الأقباط في عهد المماليك البحرية	٢٠٤
واقعة هدم الكنائس وإحراق الجوامع	٢٢٠
حال المصريين في عهد الدولة العثمانية	٢٦١
مصائب أخرى	٢٧٦
ترجمة المعلم جرجس الجوهري	٢٨٢
يعقوب الجندي والجيش القبطي	٢٨٩
المعلم غالي	٢٩٧
حال القبط في ظل العائلة الخديوية	٣٠٣
كيرلس الرابع (أبو الإصلاح)	٣٠٥
تاريخنا الحديث وحالتنا الحاضرة	٣٢٤
النهضة الأولى	٣٢٩
النهضة الثانية	٣٣٢
النهضة الثالثة	٣٣٧
الخاتمة	٣٧٢
تقاريظ الكتاب	٣٧٦
فهرس أبجدي	ف أ

مقدمة الطبعة الثانية

يبدأ تاريخ الأقباط في القرن الأول الميلادي، إلاَّ أن حضارتهم تمتد جذورها في تربة مصر الفرعونية، فلغتهم القبطية هي المرحلة الأخيرة من مراحل اللغة المصرية القديمة التي بدأ المصري يكتبها منذ خمسة آلاف عام، وإستمرت اللغة القبطية لغة كل المصريين لقرون عديدة بعد دخول العرب مصر، ومازالت مستخدمة حتى الآن في طقوس الكنيسة القبطية العريقة وفي صلواتها، ومازال الفلاح المصري يستخدم التقويم القبطي في تنظيم زراعاته حتى اليوم، كما تأثرت فنون الأقباط وآدابهم بتراث مصر القديمة.

والأقباط جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع المصري خلال عصوره المختلفة، إذ مرَّ عليهم كل مامرَّ على جميع المصريين، فتاريخ مصر هو تاريخهم، إلاَّ أن إختلاف عقيدتهم أو ديانتهم عن عقيدة أو ديانة الحكام قد أدى إلى ضغوط إقتصادية وإجتماعية ألمت بهم في فترات غير قليلة، وتتراوح درجات هذه الضغوط بإختلاف طبيعة العصر وأسلوب الحكم وشخصية الحاكم، وفي حالات ليست نادرة أصابهم مزاج الحاكم أو إختلال قواه العقلية بأضرار تفوق كثيراً الأضرار التي لحقت بمواطنيهم من غير الأقباط، فمن الطبيعي أن يكون للأقباط تاريخهم الخاص في إطار تاريخ مصر العام.

وتاريخ الأقباط تراث وطني هام ولكنه يكاد أن يكون غير معروف للغالبية العظمى من المثقفين، ناهيك عن المتعلمين غير المثقفين وغير المتعلمين، ولا يختلف في هذا الأمر القبطي عن المسلم، فكلاهما لا يجد المعلومة الصحيحة التي تعبر عن الحقيقة وتخاطب المثقف العام غير المتخصص، إلاّ فيما ندر، وإن وجد القارىء المعلومة المتعلقة بتاريخ الأقباط فإنه يجدها في أغلب الأحيان مغلفة في أسلوب يبعدها قليلاً أو كثيرًا عن الحقيقة، وأسباب ذلك عديدة، أهمها أن كتابة التاريخ في مصر مازالت في معظم صورها تهتم بالأحداث السياسية والعسكرية وتاريخ الحكام بصفة عامة أكثر من إهتمامها بالأحوال الإقتصادية والإجتماعية للناس ودقائق حياتهم اليومية، كما أن هناك حساسية بالغة لدى معظم الكتاب عند تناول الموضوعات التي تتعلق بتاريخ الأقباط ولا سيما بالنسبة لسياسة الحكام تجاههم، إذ يتم التركيز على إظهار الجوانب الإيجابية والمرور سريعًا على السلبيات أو تجاهلها، بالإضافة إلى أن الكثير من المؤرخين ينظرون إلى التاريخ الحضاري للأقباط على أنه تاريخ ديني وليس تاريخًا وطنيًا بالدرجة الأولى.

وخلال النصف الثاني من القرن العشرين إزداد الإهتمام العالمي بالقبطيات إثر الكشف عن المخطوطات القبطية الغنوسية المعروفة ببرديات نجع حمادي وكذلك إثر عرض المئات من روائع الفن القبطي في معارض جالت بعديد من

المدن الأوربية والأمريكية التي واكبها إصدار كتالوجات قيمة أنيقة أبرزت أهمية التراث القبطي، كما حظيت الدراسات القبطية بمكانة لائقة في عدد من جامعات أوروبا وأمريكا، وإنعقدت ستة مؤتمرات دولية للقبطيات، وأخيراً صدرت الموسوعة القبطية في ثمانى مجلدات ضخمة، إلاَّ أنه للأسف الشديد لم يحدث في مصر موطن الحضارة القبطية صدى ملائم لهذه التطورات الهامة، فما زال التاريخ القبطي مهملاً في مناهج التعليم بمراحله المختلفة، ولا يوجد قسم للحضارة القبطية في أية جامعة مصرية، كما تعزف وسائل الإعلام المختلفة عن تخصيص مساحة للتراث القبطي بالقدر الذي يتناسب مع حجمه وأهميته.

ومن جهة أخرى، منذ خواتيم القرن التاسع عشر بدأ عدد من العلماء الأقباط نشر كتب تتناول التاريخ القبطي وتعتمد في معظم مادتها على المخطوطات المحفوظة في الأديرة والكنائس القديمة، وهي مجهودات كبيرة إلاَّ أنها متناثرة وغالبيتها تفيد المتخصص المهتم بتفاصيل هذا التاريخ، والقليل منها تم تأليفه خصيصًا لعموم المثقفين الذين يرغبون في الإطلاع على تاريخ الأقباط الممتد قرابة ألفي عام من خلال كتاب واحد، ومعظم هذه المؤلفات نفذت طبعاتها، وبعضها لا يوجد إلاَّ في المكتبات المتخصصة، وهي قليلة للغاية.

وأول عمل هام يتناول تاريخ الأقباط في مؤلف واحد هو كتاب (تاريخ الأمة

القبطية) للعلامة يعقوب نخلة روفيله والذي صدر منذ أكثر من مائة عام وتمت طباعته (بمطبعة التوفيق القبطية الأرثوذكسية) عام١٨٩٩ حسب ما جاء في نهاية خاتمة مؤلف الكتاب، وبالرغم من مرور قرن كامل على ظهور هذا العمل الرائد إلاَّ أنه لا يزال مصدرًا موثوقًا به للمشتغلين بالتاريخ القبطي، كما أنه في نفس الوقت كتاب نافع لكل مثقف يرغب في الوقوف على التاريخ الحقيقي لأجداده، ويذكر روفيله في مقدمة كتابه أن تاريخ الأقباط مجهول إذ لم يفرد له أحد المؤرخين كتابًا خاصًا به، وأن غيرته الوطنية دفعته إلى الإقدام على وضع هذا الكتاب غير مبالٍ بما سيلاقيه من صعوبات في إعداده، وفي الحقيقة حالف التوفيق روفيله في إصدار أول كتاب باللغة العربية يتناول تاريخ الأقباط متعرضًا لأحداث تكشف النقاب عن وضعهم في المجتمع المصري ومعاملة الحكام لهم على مر العصور، مستخلصًا نتائج هامة تدل على قدرته على النظرة الشاملة والفاحصة في نفس الوقت لتاريخ الأقباط، ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في ص ١٠٨: (وبالجملة فإن المصريين عمومًا لم يروا من بعد عمرو بن العاص أيامًا أحسن من أيام إبن طولون والدولتين الفاطمية والأيوبية بصرف النظر عما أصابهم على يد الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء الفاطميين)، وما جاء في ص ١٥٨ عن حروب الفرنجة المعروفة في الغرب بالحروب الصليبية من أن الأقباط (لم ينجوا من يد الإفرنج ولم يسلموا من

شرهم حينما حلوا بمصر ولما وصلوا إليها في أول مرة نزلوا بمدينة تسمى الفرما وقتلوا جميع من بها دون تمييز بين مسلم أو نصراني) .

وقد إتبع روفيله نهجًا علميًا في تقييمه للمادة التاريخية المتاحة له آن ذاك ، من ذلك ما جاء في ص ٢٨ عن إضطهاد الرومان للأقباط: (. . . جاء في بعض التواريخ أنه قُتل في يوم واحد من الأقباط بمدينة الإسكندرية مائتا الف نفس وإن كان هذا لا يخلو من المبالغة في القول والمغالاة في النقل إلاَّ أنه يدل على شدة إضطرام نار الفتنة والضغينة بين القبط والروم وربما كان هذا عدد جميع الذين قتلوا من الأقباط في كل أنحاء مصر بسبب ما كان بينهم وبين الروم من خلاف وهو عدد ليس بقليل) ، وفي مناقشته لموضوع فرض العرب الجزية حتى على الرهبان أبدى روفيله رأياً وجيهًا في ص ٦٩ ، هامش(١) : (. . .ولما رأى بعض ولاة العرب أنه يوجد في ديارات برية شيهات وحدها عدد عظيم من الرهبان كهذا خشي حدوث ما يخل بالنظام فعمد إلى ربط الجزية عليهم وشدد في تحصيلها لفائدة الخزينة من جهة ونقص عددهم من جهة أخرى) .

وعند تقييم كتاب روفيله علينا أن نضع في الإعتبار أنه قد مضت مائة عام على طباعته ظهرت فيها موسوعات ومعاجم عديدة ومؤلفات لا حصر لها لم تكن في متناول المؤلف ، ومن ثم يجب أن نتجاوز عن الأخطاء التي تتعلق

بالأصول المصرية القديمة أو القبطية لأسماء المواقع والمدن المذكورة في الكتاب، ومن ناحية أخرى يشتمل كتاب روفيله على فهرس رُتب ترتيبًا أبجديًا جمع فيه أسماء الأعلام من شخصيات ومواقع جغرافية وأدمج فيه عددًا كبيرًا من الموضوعات التي مثلت بالنسبة له أهمية خاصة مثل (بناء جامع إبن طولون) أو (ضرائب الأقباط) أو (قوانين إبن العسال) مما يزيد من قيمة الكتاب.

ينتمي المؤرخ يعقوب نخلة روفيله إلى مجموعة من مشاهير الأقباط في القرن التاسع عشر الذين تأثروا بإصلاحات البطريرك الأنبا كيرلس الرابع (١٨٥٤-١٨٦١) الملقب عن جدارة بأبي الإصلاح، وقد تلقى روفيله التعليم في كلية الأقباط الكبرى أثناء حبرية هذا المصلح العظيم، وعشق روفيله تاريخ الأقباط وحضارتهم وكان توافًا إلى الحفاظ على تراثهم الفني والأدبي كما تشهد على ذلك فقرة في خاتمة كتابه: (... يا حبذا لو إنتهز بعض فضلائنا هذه الفرصة الثمينة ووجهوا إلتفاتهم إلى ما بقي عندنا من الآثار القديمة العديمة المثال وكتب خط اليد المشتتة الموجودة تحت يد من لا يعرف لها قيمة ويرفعون لغبطة البطريرك مشروعًا بجمع شتاتها في محل واحد مع المحافظة عليها كما أشرنا إلى ذلك في ماتقدم)، وربما كانت أمنية روفيله هذه مصدر إلهام رجلين عظيمين هما مرقس سميكه باشا ويسى عبد المسيح في تكريس حياتهما من أجل تحقيق هذه الأمنية بتأسيس المتحف القبطي وبالعناية

بمخطوطات الكنائس والأديرة القديمة.

لقد سبق المؤرخ العلامة يعقوب نخلة روفيله عصره، ولإحياء ذكراه ليس هناك شيء أوقع من إعادة طبع كتابه (تاريخ الأمة القبطية) بمناسبة مرور مائة عام على صدوره.

د. جودت جبره

مقدمة

لما كانت أخبار السلف تذكرة للخلف ومشكاة يُهتدى بها ونبراسًا يُقتدى بمثالها وكان تاريخ الأمة القبطية مجهولاً إذ لم يُفرد له أحد المؤرخين كتابًا خاصًا به يجمع فيه أشهر الحوادث الغابرة وأهم الأخبار الماضية بل أن كل مؤرخ كتب بحسب ما يلوح له ويروق في عينيه فضلاً عن إختلاف مشربه وعدم توفيقه إلى نقطة أساسية يدور عليها محور بحثه. لذلك رأيت أنه من الوجوبي تدوين أخبار هذه الأمة عن أصدق الموارد وجمع شتات تاريخها في كتاب واحد. وقد دفعتني المحبة الجنسية والغيرة الوطنية إلى الإقدام على هذا العمل المأثور غير مبال بما ألاقيه من الصعوبة ووعورة المسلك ولله الحمد فقد وفقني الله إلى إنجازه على أحسن أسلوب حتى جاء كتابًا وافيًا بالغرض كافياً لكل مطلع مع صغر حجمه.

وإذا بدا لا تستقلوا بحجمه وحياتكم فيه الكثير الطيب

وها أنا أقدمه هدية مرضية وخدمة جنسية لإبناء أُمتي لا أبغي منهم جزاءً ولا شكورًا. غير أني أرجو لطفهم وأستميح سماح كرم أخلاقهم إقالة عثاري وقبول هديتي والإغضاء عما به من السقطات فالعصمة لله وحده.

يعقوب نخلة روفيله

أصل الأقباط

الأقباط هم بقايا تلك الأمة المصرية العريقة في الحضارة التي أجمع الكل على أنها أقدم الأمم في المدنية وأسبقها إلى التمدن وقد شهدت التواريخ على أنها هي السبب الوحيد والعامل الأكيد على إيجاد التمدن في العالم وإنتشاره على وجه البسيطة.

ومصر إسم لتلك البلاد التي كانت إستوطنها هذه الأمة وهي كلمة عبرانية الأصل مشتقة من مصرايم [1] بن حام بن نوح الذي أتى بعشيرته إلى وادى النيل وإتخذه مقرًا له ولأولاده من بعده وذلك عقب تبلبل الألسنة ببابل وتفرق أولاد نوح على وجه الأرض كم جاء في التوراة.

ويسمى الإفرنج مصر Egypte (إيچيپت) نقلاً عن اليونان الذين لما فتحوا مصر على يد الإسكندر المقدوني الشهير بالأكبر أطلقوا عليها إسم (إيچيپتوس) وقال بعض الباحثين في تاريخ

---

[1] قيل أن مصر عند العبرانيين مشتق من (صر) أي الشدة ويعنون بذلك ما لاقوه من الشدة والعنف في الإستعباد. والبعض من المؤرخين يدعون مينا أول ملوك مصر (مصرايم) ولكن لا دليل على ذلك.

مصر أن لفظة إيچپتوس مركبة من كلمتين (إى) بمعنى أرض أو دار و (چپتوس) أي قفط أو (جفط) كما ينطقها أهل الصعيد للآن فيكوَن معنى الكلمتين معًا أرض القبط أو دار القبط.[1]

وقيل أن قبط من قفطايم أحد أولاد مصرايم وهو الذي إبتنى مدينة قفط بالصعيد الأعلى فسُميت بإسمه وكانت مدينة عامرة إشتهرت قديمًا وخصوصًا في عهد دولة البطالسة بكونها محط رحال التجار الذين كانوا يقصدون مصر من بلاد العرب والهند لبيع بضائعهم وكان بها قلعة حصينة وجنود للمحافظة أما الآن فهي قرية حقيرة تسمى دفادف قفط وقلعة قفط أيضًا.

وجاء أيضًا أن إيچپت من (هيكپتاه) وهى كلمة مصرية مركبة من (هيكي) بمعنى أرض و (بتاه ⲡⲧⲁϩ) إسم المعبود الأكبر الذي كان يعبده قدماء المصريين ومعناه الخالق أو المبدع.

﴿ تنبيه ﴾ إن ضبط نطق هيكپتاه هو (كاهي پتاه) لأن (كاهي ⲕⲁϩⲓ) في اللغة القبطية معناه أرض، والإفرنج تصرَّفوا فيها وحرَّفوها عن أصلها كتحريفهم الأسماء المنقولة إلى لغتهم.

أما إسم مصر في اللغة القبطية فهو (ⲭⲏⲙⲓ) كيمي أو

[1] وهو القول الذي يعتمد عليه أكثر الباحثين.

خيمى نسبةً إلى حام أبي مصرايم وقيل بل هي لفظة مشتقة من (كيم) بمعنى أسود نسبة إلى سواد طينتها .[1]

قال المقريزي في خططه أن مصرايم بن حام بن نوح أتى بأولاده وسكن مصر وسُميت بإسمه ولما كثرت أولاده قطع لكل واحد منهم قطيعة يحوزها لنفسه ولولده وكان قفطايم من كبار أولاده فقطعه قفط وما فوقها إلى أصوان وما دونها إلى الأشمونين (بمديرية أسيوط) وبه سُميت (قفط) قفطًا (اهـ) .

وقد أجمع المؤرخون المتأخرون على أن سكان وادي النيل كانوا قبل إنضمامهم إلى أمّة واحدة عبارة عن جملة قبائل أشبه بقبائل العرب وعليه فليس ببعيد من أنه كانت توجد بين تلك القبائل قبيلة تسمى قفط نسبة إلى قفطايم بن مصرايم وربما كانت هذه القبيلة أكبر القبائل وأشهرها كما يؤخذ مما نقله المقريزي وجميع هذه القبائل تجمعها كلمة (مصريين) نسبة إلى مصرايم الذي هو أبو جميع أولاده المسماة القبائل بأسمائهم وهذا هو الرأي الموافق لما جاء في السفر الأول من التوراه فعلى هذا يكون كل قبطي مصريًا وكل مصري قبطيًا إلا في حالة التمييز بين

[1] وهو القول الذي يرجع إليه .

المسيحي والمسلم من المصريين فيُقال حينئذ قبطي أي مصري مسيحي.

وكما يسمي اليونان أهل مصر (إيچپتن) والإفرنج (إيچپشن) و(إيچپسيان) كذلك العرب يسمونهم أقباطًا والأصل الذي أشتقت منه هذه الأسماء واحد ولا إختلاف إلا في النطق فقط.

المصريون قبل الدولة الفرعونية وديانتهم

يظهر أن المصريين إستمرُّوا منقسمين في مبدأ أمرهم إلى جملة قبائل مستقلة لكل قبيلة رئيس يدير أمورها بدون منازع ولا معارض وإذا تعدَّت قبيلة على أخرى أو نازعتها شيئًا مما هو لها أو حصل بينهما خلاف رفع المتحاكمان أمرهما إلى الكهنة ليفصلوا بينهما فكان حكمهم باتًا لا يقبل أية معارضة وإستمروا على هذه العيشة الهنيئة مدة من الزمن ولذا زعم قدماء المصريين أن أجدادهم مكثوا زمانًا تحت أحكام الآلهة إشاره إلى المدة التي إختص فيها الكهنة بالأحكام والفصل بين القبائل في دعاويهم وقضاياهم بالعدل والإنصاف وردع الجائر

وكبح جماح المعتدي بلا مراعاة خواطر . وبالجملة فكان للكهنة الصوت الأول والنفوذ التام وتخضع لهم جميع القبائل ورؤسائها وترضخ لأوامرهم ولذا كانت حكومه المصريين في ذاك الزمن دينية ولهذا السبب زعم قدماؤهم أن الآلهة حكمتهم مدة .

ومازال الكهنة على هذا التسلط والنفوذ حتى ظهر بين القوم رجل يسمى مينا أومينيس بقرية في الصعيد يقال لها طان بمديرية جرجا كان في الغالب رئيس قبيلة مسموع الكلمة عند قومه وطمع في السيادة فجمع رجالاً وجنَّدهم وإتخذهم أعوانًا له وضم إليه بعض القبائل ونازع الكهنة وإختلس بعض حقوقهم وإمتيازاتهم وألزمهم أن يقتصروا فقط على الإشتغال بالعبادة وإقامة الشعائر الدينية ومن ثمَّ قل نفوذهم ونزع من يدهم الحكم المدني .

ولم يخالط الكهنة الناس في السكنى بل إنفردوا في مدينة مخصوصة تسمى طيبة[1] وموضعها الآن الأقصر بمديرية قنا

---

[1] طيبة (Thébes ويسميها اليونان ديوسپوليس الكبرى) ودعاها هوميروس اليوناني أبو الشعراء بذات المائة باب، وبقاياها الآن: لُقصر والقُرنة ومدينة آبو والكرنك والميت عامود .

وكانت مدينة عظيمة وبها هيكل المعبود (هور) أي الشمس ويغلب على الظن أن أصل طيبة (ⲦⲠⲈ) وهي كلمة قبطية معناها السماء أو العلاء وسُميت بهذا الإسم رمزاً إلى رفعه مقامها وعلو مكانتها نظرًا لوجود مقام هذا المعبود بها . وكان الناس يحجون إليها في أيام معلومه من السنه ويؤدون فيها الفرائض الدينية ويقدمون للكهنة المنوطين بخدمة الهيكل العطايا والنذور والرواتب المقرَّرة عليهم وكانوا يدعونهم (هورشسّو) أي خدمة المعبود (هور) .

أما ديانة المصريين القدماء فلم تكن في الأصل وثنية بحتة فإن مصرايم وعشيرته لما أتوا إلى وادي النيل وتوطنوا فيه كانوا يعبدون الإله الحق وإستمرُّوا على ذلك مدة قصد في أثنائها كهنتهم التعريف عن صفات الإله غير المنظور بطريقة يسهل على البسطاء إدراكها فأقاموا تماثيل تمثل صفات وأعمال الإله الحقيقى مثل الحياة والأزلية والملك والتصرف في العباد بما يشاء بأشكال وأشباه شتَّى ولكنهم مع تمادى الزمن ضلوا عن سواء السبيل ونسوا تلك الحقيقة وتمسكوا بالتقاليد والخرافات فأصبحوا لايعرفون من معبوداتهم إلا تلك الحجارة الصماء التي صنعوها

بأيديهم إلا أنه رغمًا عن عدم إتصال الوحي بهم قد أدركوا وجود إله خالق سرمدي متكفل بالإنسان في الحياة الدنيا يناقشه الحساب عن أعماله في الآخرة وديانتهم هذه تقرب من الديانة الصحيحة الموحى بها لو إستمرَّت على حالها وعمل الكهنة على إذاعتها بين الشعب بغير الطريقة التي إستعملوها . على أن تلك الحقيقة لم تخفَ عن حكمائهم وكهنتهم إلا أن ما حسبوه خيرًا كان سببًا في وقوع الناس في الضلال ولم يردُّوهم عما وقعوا فيه أو ينصحوهم لما وجدوا في ذلك من الفائدة الشخصيه وجرّ المنفعة الذاتية بإستيلائهم على عقولهم وأفكارهم وجعلهم طوع إشارتهم يُطوّحون بهم كيفما شاؤوا وأرادوا فأمسكوا عن التعرض لهم في معتقدهم وكأنهم كفَّروا عن هذا التساهل بأن أخذوا على عاتقهم بذل النصيحة للناس بإطاعة ملوكهم وأولياء إمورهم وحث الملوك على إجراء العدل والإنصاف والرفق بالرعية ووجوب إكرام الشبان للشيوخ ومن هم أكبر منهم سنًا وغير ذلك من الآداب والأمور التي لا تخلو من الفائدة العمومية وهذا ليس بكاف لإخلائهم من المسئولية عن إخفائهم الحقيقة عن الناس وعدم إرشادهم إلى معرفة الإله الحقيقي والدين الحق .

وكان من أكبر وأقدم معبوداتهم المعبود (بتاه ΠΤα) وله المقام الأول ومعناه المبدع أو الأصل أو علة الوجود والمعبود (را pH أو pH) أي الشمس وهو الثاني في الربوبية ويرسمون الأول على صورة إنسان محنط يحرك يديه كيف يشاءُ وهو قابض بهما على ثلاث علامات تشير إلى الحياة والأزلية والمُلك ويعتقدون أنه هو الذي أعطى المعبود (را) عناصر الخلقة ومنحه حق التسلط على العالم بأسره. أما المعبود (را) أي الشمس فإعتقادهم فيه أنه علة الحياة وكانوا يُصوّرونه على أشكال شتَّى ويسمونه بأسماءٍ مختلفة بحسب إختلاف أدوار الشمس من وقت بزوغها إلى ساعة غروبها ثم عودتها بعد إنقضاءِ الليل وزوال الظلام من على وجه الأرض. وكان لهم غير هذين المعبودين معبودات كثيرة أخرى يسندون أعمال ووظائف كل منها على أقوال وخرافات لا حاجة لذكرها هنا حبًا في الإختصار.

تأسيس المملكة الفرعونية
وما كانت عليه مصر في زمن ملوك الفراعنة

لما تغلَّب مينا على الكهنة ونزع من يدهم السلطة المدنية وألزمهم الإقتصار على الخدمة الدينية وإقامة شعائرها كما تقدم القول ضعفت شوكتهم وقلت منفعتهم فنقموا عليه وأخذوا يدسون الدسائس ويثيرون الفتن ضده ويحرضون الناس على مخالفته والتمرد عليه بقولهم أن الآلهه ساخطة وناقمة عليه لتعديه على كرامة خدامها . أما هو فلم يعبأ بهذه التمويهات بل تركهم وشأنهم وأتى إلى جهة الجيزة وإبتنى هناك مدينة سمَّاها منف أو منفيس[1] وقد إندثرت الآن ولم يبق لها أثر بعد عين وشيَّد بها هيكلا عظيمًا يحاكي في العظمة والرونق هيكل طيبة وخصصه للمعبود (بتاه) وجعلها عاصمة مملكته الجديدة التي أسسها فهاجر إليها كثير من مصر العلياء وإتخذوها موطنًا ومن ثمَّ أخذ في إصلاح أراضي الوجه البحري التي يظهر أنها كانت

[1] في محل جزء منها ميت رهينة تبعد عن القاهرة ١٢ كيلومترًا للجنوب و٨ عن الأهرام الكبيرة وإسمها بالقبطي الصعيدي ⲙⲁⲁⲡⲉ وبالقبطي البحيري ⲙⲉϥⲏ وبعضهم قال ⲙⲏⲫⲏ ومعناه دار القبلة .

صفصفًا خاليًا وبلقعًا خاويًا ومن ذاك الحين أخذت مدينة طيبة في التقهقر والإنحطاط وقد قل نجم إسمها وغربت شمس طلعتها ويقال أن هذا الملك العظيم هو الذي حول مجرى النيل إلى الوجه البحري بعد أن كان يخترق الصحارى وتذهب مياهه سدى بلا فائدة ولذلك كان حظ مصر السفلى عظيمًا لتشعب فروع النيل فيها وإحياء أرضها بعد أن كانت بلقعًا .

ومينا هو أول ملوك مصر الوطنيين الذين كانوا يلقبون بالفراعنة (واحده فرعون) وقيل أن معنى فرعون (إبن الشمس) وفسرها بعضهم بصاحب الحضرة ومن عهده أخذت مصر تظهر في عالم الوجود بمظهر يخالف ما كانت عليه قبلاً وبعد أن كان العمران مقتصرًا على الوجه القبلي صار يمتد شيئًا فشيئًا حتى عم الوجه البحري بأكمله وشيدت به المدن العظيمة والمباني الفاخرة فكانت توجد بمصر تارة مملكتان مستقلتان إحداهما في الوجه البحري والثانية في الوجة القبلي وطورًا تجتمعان وتصيران مملكة واحدة ذات ملك واحد .

ولما فرغ مينا من تشييد منف فتح ليبيا[1] فإتسعت مملكته

---

(١) ليبيا LIBH بلاد المغرب ويقصد بها مؤرخو اليونان أفريقيا .

وقويت شوكته وغير بعض عوائد المصريين وإستبدلها بغيرها وإستمر ساهرًا على راحة رعاياه عاملاً على إصلاح مملكته التي أسسها وأنشأها حتى مات. وحذا حذوه الملوك الذين أخلفوه فنسجوا على منواله وغزوا البلاد وضموا القبائل المتفرقة بالتدابير السياسية وتوسيع نطاق المملكة والمحافظة على البلاد وأرواح العباد وأعراض الرعايا وأموالها وتأسيس المدن وتشييد العمارات وإقامة المسلات وإنشاء الخزانات النيلية وشق الترع ومد الجسور وغير ذلك من الأعمال المفيدة التي تعود على البلاد وأهلها بالنفع العميم وكان الكهنة يشتغلون بالعلوم والمعارف وسن الشرائع العادلة وبعضهم يهتم بتربية أولاد الملوك والأمراء ليكونوا أهلا لخدمة بلادهم وأوطانهم كما يجد الراغب في معرفة تاريخ بلاده كل ذلك مفصلاً في الكتب التي وضعها أهل الفضل باللغة العربية نقلاً من المؤلفات الأجنبية والآثار المصرية أو يكفي نفسه مؤنة تعب البحث بمشاهدة الآثار النفيسة التي يقول لسان حالها.

تلك آثار تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

أما الأهالي فكانوا يمارسون الصنائع ويشتغلون بالزراعة

وما يتعلق بها ولذلك توفرت أسباب العمران والثروة في البلاد قاطبة ومما يمدحون عليه أنهم مع كثرة معبوداتهم وتعددها وإختلاف عقائدهم لم يكن للتعصب الديني نصيبًا بينهم بل كانوا عاقدي الخناصر على تقدم بلادهم وإستقلالها مؤازرين لبعضهم البعض على إيرادها موارد العز والترقي عاملين كإخوان تجمعهم الجامعة الوطنية وعرف كل منهم واجباته نحو وطنه فقام بها أحسن قيام فإتسع في أيام هؤلاء الملوك والفراعنة الوطنيين نطاق المملكة المصرية وتأيدت دعائمها وإرتفعت كلمتها فخضعت لها أفريقيا وآسيا وإمتدت سلطتها إلى أوروبا ولبثت على هذه الحال مدة أجيال طويلة وهي ترتقي إلى معارج التقدم وتسود على الأمم والأمصار حتى أتى دور إنحطاطها وهاجمها جيش التأخر فلم تلبث أمامه ثابتة بل خارت قواها ونزعت إلى الخضوع رغمًا عن الأنفة لأن دوام الحال من المحال فأخذت الأحوال تتغير والنظام يختل وإنفصمت عري الإتحاد والألفة لإستيلاء حب الذات على أولي الأمر الذين فضلوا جر المنافع الذاتية إليهم على الفائدة العمومية فسقطت الرعايا في وهدة الفشل ومما زاد الطين بلة أن بعض الملوك إتخذ جنودًا وأعوانًا من الأجانب الذين

لايهمهم أمر إنتظام الملك أو إختلاله فأغاظ بفعله هذا عساكره الوطنيين فتركوه إلى نوبيا وغيرها فإستوطنوها .

إستيلاء الفرس على مصر
وإنقراض الدولة الفرعونية الوطنية

وفي خلال تلك المدة ظهرت بآسيا مملكة تسمى مملكة الفرس أو العجم فأخذت تتقوى وتمتد شيئًا فشيئًا حتى خضعت لها بلاد كثيرة وقد قادها طمعها وحسدها إلى الإستيلاء على مصر نظرًا لوفرة خيراتها وثروتها فإنتهز أحد ملوكها المسمى قمبيز هذا الفشل فرصة مناسبة لشن الغارة عليها فحشد جيشاً جرارًا وحمل عليها في سنة ٥٢٧ ق م فأخضعها لحكمه ولم تقم لمصر قائمة بعد ذلك بل إستـ رت تحت نير الأجانب ومن ثم فقدت إستقلالها رغمًا عن إهتمام بعض أمرائها بنزعها من يد الفرس وتخليصها من قبضتهم مرتين ولكن لم يمض زمن حتى أعاد الفرس الكره وإستولوا عليها ثانية وأذاقوا أهلها مر العذاب فقهروهم وأذلوهم وخربوا المدن وهدموا المعابد وسبوا

النساء وقتلوا الرجال وسلبوا الأموال وطالت مدة حكمهم المشوب بالظلم نحوًا من مائة سنة أحرقوا فيها الحرث والنسل ومن ذاك الحين إنقرضت الدولة الفرعونية الوطنية ولم يبق لها أثر إلى يومنا هذا فسبحان من له الدوام ولله درَّ من قال:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

ظهور إسكندر الأكبر
وتخليصه مصر من يد الفرس

وفي غضون ذلك ظهر إسكندر المقدوني الشهير بالأكبر فقصد محاربة الفرس سنة ٣٣٢ ق.م وفيما هو سائر إليهم عرج على مصر ونزعها من يدهم فقابله المصريون بالترحيب والإكرام لما لاقوه من سوء معاملة الفرس الذين لم يتركوا إلا أوابدهم [١] تتأوه منها المصريون. ولما إستولى عليها أحسن معاملة أهلها ومنحهم الحرية الدينية ولم يتعرض لهم في شيء من عوائدهم.

---

[١] الداهية التى يبقى ذكرها.

مصر في عهد الدولة اليونانية

لما إستولى الإسكندر الأكبر على مصر لم يرد البقاء بها لأنه كان يقصد بلاد الفرس لمحاربة ملكها كما تقدم القول إلا أنه لم يبارحها حتى جعل له فيها أثرًا لايزال باقيًا وسيبقى إلى ماشاء الله وذلك أنه إختط بها مدينة جديدة على البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) سماها بإسمه وهي مدينة الإسكندرية الموجودة. وكان بمحل هذه المدينة قرية قديمة تسمى راكودي وبالقبطية (ⲣⲁⲕⲟⲧ) ومعناه على مايقال الحصن أو الوقاية أو الجسر. فلما رآها إسكندر أعجبه موقعها ليس بالنسبة لجودة هوائها بل لتوسطها بين بلاد المشرق والمغرب فإبتنى بها مدينة وأدخل بها قرية راكودي القديمة وأحاطها بسور منيع ولذا كان القبط يسمون الإسكندرية (راكودي) وإستمروا محافظين على هذا الإسم إلى مابعد الميلاد بأجيال ولا يزال هذا إسمها في لغتهم القبطية وكثيرًا ما تذكر في كتبهم القديمة به.

وقد تحقق رجاء الإسكندر في أمر هذه المدينة التي أراد بإنشائها أن تكون مركزًا للتجارة بين المشرق والمغرب فأصبحت

مركزًا مهمًا للتجارة بين أوروبا وآسيا وأفريقيا في جميع الأزمان فكان يؤمها التجار من أقصى بلاد المشرق والمغرب لبيع بضائعهم بها وإستبدالها بغيرها من حاصلات البلاد المصرية فنمت نموًا عظيمًا في مدة قليلة وبلغت الدرجة القصوى من السعادة بسبب موقعها الجغرافي وعلائقها التجارية مع أوروبا والشام وجزيرة العرب والهند فكانت تعد من أعظم بلاد الدنيا لغنى أهلها وكثرتهم إذ قد بلغوا في أيام بهجتها أكثر من تسعمائة ألف نفس أكثرهم من الأقباط.

ولما فتح إسكندر المقدوني اليوناني مصر ونزعها من يد الفرس وأجلاهم عنها كانت العاصمة هي مدينة منف التي أسسها مينا أول ملوك الفراعنة بجهة الجيزة فلما أُنشئت مدينة الإسكندرية إتخذها الملوك البطالسة اليونانيون مقرًا لهم وجعلوها تحت المملكة المصرية وتغالوا في تحسينها وتزيينها فأصبحت غاية في البهجة والرونق ومن ثم تدرجت مدينة منف في أدوار الإنحطاط حتى أنه لم يبق الآن إلا إسمها.

والذي زاد أهمية الإسكندرية أنها كانت محط رجال العلم والعلماء فإشتهر علماؤها وذاع صيتهم في كل أقطار الدنيا

وكانت بها مكتبة تشتمل على سبعمائة ألف مجلد معظمها عن علوم المصريين القدماء وكان لعلمائها أروقة مختصة بهم يجتمعون فيها ويتناظرون ويتناقشون في الفنون العقلية السامية حتى أنه كان يقصدها الكثير من الجهات ليتلقوا العلوم في مدارسها .

ولما مات الإسكندر الأكبر إقتسم قواد جيوشه البلاد التي إفتتحها في حياته فوقعت مصر في يد أحد هؤلاء القواد المسمى بطليموس سوتير وهو أول العائلة المعروفة في التاريخ بالعائلة البطليموسية أو عائلة البطالسة وثاني ملوك الدولة اليونانية بعد إسكندر الأكبر الفاتح . وبقيت مصر في يد هذه العائلة مدة مائتين وثلاث وتسعين سنة لم ير المصريون الأقباط من عهد إنقراض ملوك الفراعنة الوطنيين مدة أهنأ منها عيشاً وأنعم بالاً بالنسبة لمعاملة معظم ملوكها لهم بالرفق والقسط بدون أن يتعرضوا لهم في شيء من عوائدهم أو عباداتهم بل أطلقوا لهم عنان الحرية وتدينوا بديانتهم وعبدوا معبوداتهم وحكموا بينهم بالإنصاف والمساواة وأصلحوا مادمرته أيدي الفرس من الهياكل والمعابد التى أفرغ المصريون جهدهم في إقامتها وبذلوا في ترتيبها وتزيينها النفس والنفيس فزينوا ضفاف النيل بما شاق وراق من المباني

الباسقة والقصور الشاهقة حتى أصبحت مصر في عهدهم جنّة ورياضاً . وبالجملة فإن اليونانيين عاشوا مع القبط مدة طويلة على أحسن حال بدون أن يحصل من أيٍ من الفريقين ما يكدر خاطر الآخر بل إختلطوا ببعض إختلاطاً تامًا فكانوا كأمة واحدة وكذلك الأقباط مع شدة حرصهم ومحافظتهم على كل قديم إستعملوا الخط اليونانى ونقلوا إلى أبجديتهم جملة حروف يونانية لما وجدوا فيها من السهولة بدل الخط الهيروغليفي الذي صار من ثم خاصاً بالكهنة لا يستعمل إلا في الكتابات الدينية لا سيما في النقوش على جدران الهياكل والبرابي وأدخلوا أيضاً بغير إجبار ولا إكراه كلمات كثيرة يونانية إلى لغتهم القبطية حتى كادت تكون اللغتان واحدة .

وفي سنة ٣٠ قبل الميلاد هجم أغسطس قيصر الرومانيين على مصر ونزعها من يد الملكة كليوباترا آخر العائلة البطليموسية وهي المشهورة في التاريخ بالجمال والدهاء ولما لم تقو على مقاومته ولم تنجح في إنعطاف قلبه إليها لجمالها أو يغتر بمكرها ودهائها عمدت إلى قتل نفسها فأخذت أفعى ووضعتها بين ثدييها فلدغتها وماتت وبموتها إنقرضت الدولة اليونانية .

ومن محاسن الدولة اليونانية أن عدد سكان مصر زاد في أيام ملوكها زيادة تذكر وما هذا إلا نتيجة عدل الحكومة وإهتمامها براحة الرعايا . وقد جاء في بعض التواريخ أنه لما إستولى عليها أغسطس قيصر كان بها من اليهود نحو مليون وكان لهم هيكل يحاكي في العظمة والرونق هيكل أورشليم بناه وشيده أونياس إبن رئيس كهنة اليهود الذي إلتجأ إلى مصر في أيام بطليموس فيلوميتور وأذن له ببنائه فبناه في جهة عين شمس (المطرية) وسماه بهيكل أونيون وبجدهم وكدهم وإقتصادهم المعروف إستغنوا فصار يُضرب بهم المثل في الغنى والثروة وإشتغلوا بطلب العلم فنبغ منهم علماء أفاضل خلدوا لهم ذكرًا حسنًا في بطون التواريخ جيلا بعد جيل فحسدهم على ذلك القبط واليونان وجرت بينهم وقائع عظيمة في أيام الدولة الرومانية سُفك فيها دماء كثيرين . أما في أيام الدولة اليونانية فلم يُصبهم ما يكدر صفاءهم لأن ملوكها لم يميزوا بين الوطني والأجنبي بل كان الكل بمساواة واحدة ولذا وصلت في أيامهم إلى أرقى درجات الكمال في العلوم وتوفرت فيها أسباب المعيشة فقصدها الناس من كل جهة ورحلوا إليها من كل وادٍ للإرتزاق فلم تضق بهم ذرعًا .

ومن إشتهر في ذلك الزمن بالعلم وذاع صيته في كل الآفاق الفيلسوف العلامة (فيلو) اليهودى الإسكندري فكان له شهرة عظيمة في العلوم العقلية والنقلية وعُدَّ من أعظم علماء الإسكندرية فضلاً عما كان عليه من الغنى والثروة. وقد تمتع المصريون في هذه المدة بحريتهم الدينية بعد أن كانوا قد فقدوها في مدة حكم الفرس وإرتاحت أفئدتهم من قبلها ولذلك كانت معيشتهم في هذه الفترة هنيئًة وكان الملوك لايفتُرون عن النظر في مصالح الأمة والبحث عن الوسائل التي تزيد في رفاهيتها.

وما يدل على ذلك أن أحد ملوك البطالسة المدعو (بطليموس فيلادلف) قد أمر بترجمة التوراة من العبرانية وقد تم ذلك وتعرف الآن بالترجمة السبعينية وهي أقدم التراجم ترجمها إلى اليونانية إثنان وسبعون عالمًا من علماء الإسرائيليين.

الأقباط تحت حكم الرومانيين

وبإنقضاء مدة الدولة اليونانية أو بالأحرى العائلة البطليموسية التي أشرنا إليها قبلاً أي في سنة ٣٠ قبل الميلاد دخلت مصر في حكم الرومان وبعد أن كانت مملكة مستقلة أصبحت إيالة تابعه للمملكة الرومانية. أما سكان مصر في ذاك الزمن فكانوا يتألفون من ثلاثة عناصر مختلفة الأول الأقباط وهم العنصر الأصلي وأهل البلاد وذووها والثاني اليونانيون والثالث اليهود وهذان الأخيران أقل عددًا من الأول بكثير. ولما تم لأوغسطس قيصر الإستيلاء على البلاد ولىّ عليها واليًا من قبله وأمره أن يحكم بمقتضى شرائع وقوانين الدولة المتغلبه فكان هذا موجبًا لنفور الأقباط لعدم ملائمه هذه الشرائع للبلاد وأهلها والذي زادهم نفورًا أن الرومانيين خصّوا اليونان واليهود بإمتيازات فكان منهم قضاة ولهم محاكم مخصوصة أشبه بالمحاكم المختلطة في زماننا هذا يتقاضون ويحاكمون فيها بمقتضى قوانين مخصوصة ولذا كانوا في نوع من الحرية والإستقلال بخلاف الوطنيين الذين عملت الحكومة الرومانية على هضم جانبهم فكانت الأحكام

تُجرى عليهم كيف شاء الوالى وأراد بغير معارضة ولا محاجة على أن هذه الإمتيازات لم تكن بكافية لمصالحة أفكار اليونانيين ورضائهم عن الحكومة الرومانية الجديدة لأمرين أحدهما تحقيرهم الرومانيين وإعتبارهم أنهم دونهم في المنزلة وثانيهما مساواتهم بأمة مهضومة الجانب مثل اليهود ولذا لم يجعلوا الحكومة في راحة بال بمعاكستهم اليهود تارة ومجاهرتهم بالعصيان تارة أخرى طمعًا في الإستقلال وإلقاء نير الحكومة الرومانية عن عاتقهم. أما الأقباط الذين ألفوا الحكومة اليونانية وإرتاحوا لها لم يرضوا بالرضوخ لغيرها طوعًا فإتفقوا مع اليونان وحاربوهم على مقاومة الرومانيين الذين لم يحسنوا معاملتهم وأساءوا التصرف معهم ومع ذلك فقد ظلت مصر تابعه للدولة الرومانية إلى سنة ٦٤٠ بعد الميلاد عبارة عن ستمائة وسبعين سنة ولم يحدث في كل هذه المدة الطويلة ما يستحق الذكر سوى ظهور الديانة المسيحية في أثنائها ودخولها مصر في منتصف القرن الأول للميلاد على يد البار مارمرقس الإنجيلى ودخول الناس أفواجًا فيها نظرًا للإستعداد الذي عند المصريين لقبول الديانة الحقيقية إذ كان علماؤها يعرفون الله ويخفون الدين الحقيقي عن عامة الناس وما

لاقاه نصراؤها من الإضطهادات والشدائد ولاسيما الإضطهاد الذي أثاره دقلديانوس قيصر رومية ضد المسيحيين عمومًا والمصريين خصوصًا أقباطًا كانوا أو رومانيين حينما جاء إلى مصر. وسبب مجيء هذا الملك العاتي إليها هو أن أخيلاوس الذي كان واليًا عليها من قبل الحكومة الرومانية سولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يخل بالنظام ويستقل بالأحكام طمعًا في أن يكون ملكًا مستقلاً كما كان ملوك العائلة البطليموسية فشق عصا الطاعة وجاهر بالعصيان والإستقلال وإنحاز إليه الأقباط نظرًا لسوء معاملة الرومان لهم فلم ير دقلديانوس بُدًا من الإسراع بالحضور إلى مصر ليقتص منه على هذه المخالفة والجراءة ويستخلص البلاد من يده ويعيدها إلى ما كانت عليه من الطاعة لحكومة رومية ولدى وصوله حاصر الإسكندرية وبعد ثمانية أشهر فتحها عنوة وإستولى عليها وحرق المدينة وفتك بأهلها فتكًا ذريعًا وإقتفي أثر أخيلاوس العاصي الذي هرب إلى داخل البلاد فكان أينما حل (دقلديانوس) يوقع بالنصارى ويقتلهم ويهدم كنائسهم ويخرب معابدهم ويعذب رؤساءهم ويسبي نساءهم وأولادهم. ولما رآه الأقباط من آيات الظلم وقساوة

الإضطهادات التي كان يتفنن فيها المضطهدون أرَّخوا باوَّل مُلك هذا الإمبراطور العاتي ليكون تذكارًا لأولادهم يعرفون منه أنهم لم يشتروا حريتهم الدينية إلا بدم زكي ثمين وممن قتل في هذا الإضطهاد البابا بطرس بطريرك الإسكندرية الذي دعي خاتم الشهداء وقيل كان له إمرأة وإبنتان قتُلن معه ويبتدىء تاريخ دقلديانوس وهو المعروف بتاريخ الشهداء المعول عليه عند الأمة القبطية للآن في سنة ٢٨٤م.

ولم يرتفع الإضطهاد عن المسيحيين بعد دقلديانوس بل إستمر ثائرًا في كل أنحاء المملكة الرومانية حتى تولى القيصر ثيؤدوسيوس وإذ كان هذا قد إعتنق الدين المسيحي أصدر أمرًا ملوكيًا بالنهي عن عبادة الأصنام فنودي بالدين المسيحي في مصر وإحتفل النصارى بأداء طقوسه علنًا وبادروا بهدم هياكل الأصنام ومن ثم عم الدين المسيحي كل القطر بعد أن قاسى المسيحيون بسببه ما قاسوه من الأحوال وتحملوا إضطهادات تشيب لهولها الأطفال.

وإستراح المسيحيون عمومًا والأقباط خصوصًا من هذه الإضطهادات بسبب هذا التغيير العظيم غير أن الزمان لم يساعدهم

على الإستمرار فيها والأيام لم تسالمهم ذلك شأن الدنيا إن أقبلت بلت وإن أبسطت سطت وإن أبهجت هجت و إن أركبت ركبت .

إذا تم أمر بدا نقصه إذا قيل تم

فلم تدم هذه الراحة والسعادة إلا قليلاً حتى ظهر بين المسيحيين أنفسهم ما أدى إلى النفور والبغضاء والإيقاع ببعضهم البعض وذلك أن بعض أئمة الدين داخلهم الطمع في الإستقلال بالرئاسة فكثر ظهور البدع والشيع بين النصارى فإنقسموا على ذاتهم وإنشقوا إلى فئات متعددة كل فئة تلعن الأخرى وتحرمها وتزيف معتقدها ومذهبها .

كل يؤيد دينه ياليت شعري ما الصحيح

وإنتهى هذا الجدال والشقاق في مصر بوجود حزبين مضادين لبعضهما وهما القبط والروم والفرق بينهما أن القبط يعتقدون أن في المسيح طبيعة من طبيعتين ومشيئة من مشيئتين والروم يقولون أن في المسيح طبيعتين ومشيئتين[1] متحدين ولست أدري ما الفرق بين القولين غير العناد[2] وإن يكن الفرق في الألفاظ دون الجوهر إلا أن كلا من الحزبين لايسود التنازل عن رأيه وهذا من

---

[1] هذا هو رأى الكاتب . أما عقيدتنا الأرثوذكسية القويمة أن للمسيح إلهنا طبيعة واحدة هي طبيعة الكلمة المتجسد (Incarnated Logos) ، وكذا مشيئة واحدة .

[2] الفرق بين القولين فرق لاهوتي ولم يكن مجرد عناد كما يقول الكاتب . ونشكر الله أنه تم الإتفاق حاليًا بين اللاهوتيين الأقباط والروم حول طبيعة المسيح في دير الأنبا بيشوي عام ١٩٩٠م.

الغرابة بمكان. ومما زاد الحال أوحالاً تداخل ولاة الأمور والحكام في هذه المناقشات والمنازعات في مواضيع ليست من جوهريات الدين ولايتوقف عليها ولكن أبت محبة الرئاسة والجنوح إلى الإفراد بالسلطة والسيادة ألا يقوى الشقاق ويزداد النفور وتدب في عروق الفريقين دماء الشحناء والبغضاء مما أدى بهم ولاسيما الأقباط إلى الإضمحلال والدمار[1]. ومن الغريب أن الأئمة الذين من واجبهم حث الناس على المواخاة والموالاة هم الذين كانوا يوغرون صدور الملوك ويحرضون الحكام على إيقاع الأذى والتنكيل بالفريق الآخر المخالف لرأيهم حتى جاء في بعض التواريخ أنه قتل في يوم واحد من الأقباط بمدينة الإسكندرية مائتا ألف نفس وإن كان هذا لايخلو من المبالغة في القول والمغالاة في النقل إلا أنه يدل على شدة إضطرام نار الفتنة والضغينة بين القبط والروم وربما كان هذا عدد جميع الذين قتلوا من الأقباط في كل أنحاء مصر بسبب ما كان بينهم وبين الروم من الخلاف وهو عدد ليس بقليل. كل هذا وزعماء الدين واقفون موقف المتفرج المتشفي معتقدون أنهم خدموا الدين خدمة يمدحون أو يثابون عليها وما دروا أنهم خلدوا لأنفسهم في التاريخ ذكرًا رديئًا

[1] لعل الكاتب يقصد ما عاناه الأقباط من إضطهاد الروم بسبب الخلاف حول طبيعة المسيح (خاصة أن هذا الخلاف نشأ خلال فترة حكم الرومان لمصر) . إلا أن الأمر لم يصل إلى ما ذكره الكاتب أنه إضمحلال ودمار ، بل مجرد إضطهاد .

مقرونًا بعار لاتمحوه مرور الأيام والدهور فكم من نساء ترملت وأطفال تيتمت وأموال سُلبت ومعالم دُرست بسبب مطامعهم فلا حول ولا قوة.

وفي غضون هذه المشاحنات والإنقسامات الدينية قضت الأحوال السياسية بتقسيم المملكة الرومانية إلى مملكتين شرقية وعاصمتها القسطنطينية وغربية وقاعدتها رومية. أما مصر فكانت تابعة للمملكة الشرقية ولكن لم يغير هذا التقسيم في حالتها شيئًا بل ما زاد في الطنبور نغمةً أن ملوك القسطنطينية كانوا يحاولون توحيد العقائد وإزالة الخلاف بإلزام جميع الرعايا التابعين لهم بالتمسك بمذهب واحد وهو مذهب الروم أو بالحري التمسك بمذهب القوة الحاكمة ولذا كان الروم يسمون ملكيين ولكن لم يجد هذا نفعًا ولا فائدة بل كان سببًا للنفور منهم أكثر فأكثر ليس في مصر فقط بل وفي غيرها من الولايات التابعه للمملكة الشرقية المذكورة. ولهذا السبب كثرت القلاقل والفتن في داخلية البلاد وصغرت الحكومة الرومانية في عيون المصريين فإستعمل الحكام والولاة العسف والقوة في تنفيذ أوامرهم وأغراضهم فكان هذا داعيًا إلى إنقلاب الأهالى على الحكام

وتعديهم عليهم وإخراجهم من بلادهم.

ومما حدث أن حاكم قسم سمنود (وبالقبطية Xeunor) ألقى القبض على رجلين قبطيين من ذوي الوجاهة والإعتبار أحداهما يسمى قسمًا بن صموئيل والآخر بانون بن آموني ربما لحاجة في النفس وزجهما في السجن وكان في بلد هذين الرجلين ثلاثة أخوة يسمى أخداهم أبسخيرون والثاني مينا والثالث ياكوبوس (أي يعقوب) فتوسطوا لدى الحاكم أن يطلقها فلم يرد وقابلهم بالوقاحة والتهديد فخرجوا من عنده على نية إضمار الشر له وأخذوا يحرضون الناس ويثيرون خواطرهم على الحكومة لسوء معاملتها لهم فإنضم إليهم عدد عظيم من الأهالي وساروا بمن إلتف حولهم إلى المدينة التي يسكنها الحاكم الذي لما رأى كثرتهم وقلة عدد الجنود الذين معه هرب ملتجئًا إلى القسطنطينية ناسبًا كل هذا الإضطراب إلى تهاون يوحنا حاكم الإسكندرية ونائب الحكومة الرومانية بمصر فغضب الملك وأمر بعزل يوحنا وتعيين آخر مكانة يسمى بولس.

أما الثائرون فإستفحل أمرهم وكثر عدد المنضمين إليهم وكان بالقرب من سمنود مدينتان عظيمتان يسكنهما كثير من

الروم أهل اليسار تسمى إحداهما بانا (وبالقبطية ⲡⲁⲛⲁⲧ)والثانية بوصير (وبالقبطية ⲃⲟⲩⲥⲓⲣⲓ) فهجموا عليهما ونهبوهما وقتلوا كثيراً من سكانهما وهكذا أخذوا يستولون على البلاد حتى سادوا على معظم الوجه البحري ومنعوا الناس من دفع الأموال للحكومة وإستولوا عليها لأنفسهم ومنعوا أيضا الغلال عن الإسكندرية وحجزوا المراكب التي كانت تقصدها ووضعوا اليد على مافيها فتعطلت الأشغال وإشتد الجوع بها فرحل عنها كثير من سكانها . وكان لأحد رؤساء الثائرين الثلاثة المتقدم ذكرهم ولد يسمى إيساك (إسحق) أدته جسارته وما رآه من الفوز بمعاكسة الرومانيين بحراً فأعد أسطولاً وسار به في بحر الروم يناوش سفن الدولة ويقاتل من بها حتى لايتمكنوا من الوصول إلى الإسكندرية وهكذا منعت المسيرة وإنقطع المدد عن هذه المدينة من كل جهة . فلما وصل الخبر إلى مسامع الملك بالقسطنطينية جزع له جزعًا شديدًا خوفًا من إمتداد الثورة إلى كل أنحاء البلاد المصرية فتنتهي بخروجها من يده فعمد إلى التظاهر بتغيير خطته وإتباع سياسة الرفق والملاطفة فبعث بطريرك القسطنطينية لينوب عنه في إظهار ممنونيته من الأمة المصرية وإستعداده لإجابة ملتمسها إلى ما يكون فيه خير

بلادها وراحتها والعفو عن الثائرين لو ألقوا السلاح ولزموا الهدوء والسكينة.

وكان هذا البطريرك معروفًا عند الأمة المصرية ومحبوبًا منها لأنه كان أنطاكيًا أي ليس من رومية ولا من القسطنطينية فلما وصل إلى مصر إجتمع برؤساء الثائرين وبلغ إليهم رسالة الملك فأعلموه بأنهم لايزالون خاضعين لملكهم ما دام أنه يكون عاملاً على راحتهم وأنه لايسعهم في هذا المقام سوى تقديم الشكر له على ميله إلى العفو عنهم. أما طلباتهم فأهمها لا بل كلها تنحصر في أمر واحد وهو إعادة يوحنا حاكم الإسكندرية الذي عزله إلى مركزه الأصلي وأنهم لايقبلون حاكمًا غيره قائلين (أنه عدو للظلم ولايعاملنا إلا كما نريد أن نُعامل) فلما علم الملك بالأمر لم يرى بدًا من إجابة طلبهم وأعاد إليهم يوحنا إلا أنه أرسل معه رجلاً آخر يسمى ثيؤدور ليكون قائدًا للعساكر الرومانية وزوده بتعليمات سرية تقضي بأن يقتفي أثر رؤساء الثائرين ولا يدع أحدًا منهم يفلت من يده.

فلما وصل ثيؤدور إلى الإسكندرية وعلم بأن من ضمن أسباب الثورة سجن ذلك الرجلين وهما قسما وبانون أخرجهما

من السجن وذهب بهما مع عساكره إلى حيث كان الثائرون مجتمعين ونزل في مقابلتهم بالبر الآخر من النيل وأنزل الرجلين في مركب وسط النهر وطلب منهما إما بالتهديد وإما بالتحايل أن يناديا على إخوانهم وينصحاهم بالعودة إلى بلادهم ويبالغا في ما لدى الحكومة من القوة والمدد الذي وصل لها أخيرًا وأنه ليس في إمكانهم مقاومتها . والأَولى بهم أن يكفوا عن معاداتها حقنًا لدمائهم ودماء أولادهم ونسائهم وإذا كان سجنهما ساءهما فهما كما يروا مطلوقي السراح ولكنهما محجوزين كرهينة عند الحكومة حتى يعودوا إلى بلادهم . فأثر كلامهم في أفكار الكثير منهم وإنصرفوا عائدين إلى أوطانهم ولما لم يبق مع الثلاثة أخوة الأَعدد قليل من الرجال داهمهم ثيؤدور برجاله وقاتلهم حتى إنهزموا وقبل أن يتمكن الثلاثة أخوة من الفرار قبض عليهم وعلى إسحق ولد أحدهم وذهب بهم إلى الإسكندرية وأركبهم على جمال وطاف بهم في شوارع المدينة وكان يريد قتلهم لولا أن يوحنا الحاكم تصدى له ومنعه من ذلك وبقوا مسجونين إلى أن أبدل يوحنا بغيره فقتلهم بأمر الملك خلافًا لعهده فأوجب هذا عدم ثقة المصريين بملوك القسطنطينية .

وأعقب هذه الثورة ثورات أخرى في خربتا وصان وبسطة وسنهور وإخميم وغيرها إنتهت جميعها بمذابح وحشية من الوطنيين .

فمن جراء هذه المنازعات التي دامت زمنًا طويلاً وأهرقت بسببها دماء ألوف ومئات من الأبرياء وغير ذلك من نتائج سوء تدبير الملوك والولاة أصبحت المملكة الرومانية الشرقية في تقهقر وإنحطاط فإنتهزت بعض الممالك المعادية لها هذه فرصة مناسبة لتجريدها من أعظم وأهم ولاتها ففاجأها ملك الفرس بالحرب وإستولى على سوريا ومصر وغيرهما . وبقيت مصر في يد الفرس نحو عشر سنوات ساموا فيها المصريين الخسف والعذاب أشكالاً وإستمروا على ذلك إلى أن قام هرقل ملك الروم وقاتلهم وهزمهم وإسترجع البلاد من يدهم ولكن لم ينل أقباط مصر مع الأسف من هذا التغيير خيرًا بخلاف ماكانوا يتوقعونه من أن الحوادث علمته والتجارب ربته بل كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار فإن هرقل بعد ماخلص البلاد من يد الفرس حول نظره إلى تنفيذ الغرض الأصلي الذي كان يسعى وراءه الملوك سلفاؤه وهو توحيد العقيدة النصرانية وجعلها واحدة في كل المملكة ولما لم

يجد منهم إلا الرفض والإباء إلتجأ في تنفيذ غرضه هذا إلى القوة والشدة وحد السيف فقتل كثيرًا من السوريين والمصريين وإستباح دماءهم وسلب أموالهم وعزل البابا بنيامين بطريرك الأقباط وعين بدله ممن على مذهبه ثم طلبه (بنيامين) ليقتله فهرب وإختفي من وجهه في دير صغير بالصعيد وبقي مختفيًا فيه إلى مجيء العرب وإستيلائهم على مصر. ولما لم يعثر عليه قبض على أخيه المدعو مينا وألقاه في اليم لأنه أصر على عدم الإرشاد إلى محل أخيه وأنكر معرفة محل وجوده. ومن الغريب أن الذي كان شديد الإهتمام بالبحث عن بنيامين هو البطريرك الذي عينه الملك مكانه فلما يئس من وجوده قبض على أخيه وسلمه إلى الملك فقتله شر قتلة إنتقامًا منه على إصراره.

ومن جراء هذه الإضطهادات والقلاقل والفتن الداخلية المسببة عن إنقياد ولاة الأمور لأئمة الدين إنقيادًا أعمى وإذعانهم لمشوراتهم الفاسدة وإنصياعهم لتمويهاتهم التي كانوا يتخذونها ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الذاتية وكذلك سوء سياسة وتدبير الملوك بإهتمامهم بجعل جميع الرعايا على دين ومذهب واحد

وإشتغالهم بالأخذ بناصر الرؤساء الذين كانوا على شاكلتهم ومعتقدهم والإنتقام للواحد من الآخر بسفك دماء محازبيه بغير تبصر في عواقب الأمور وما ينجم عن ذلك من الخراب والدمار أصبحت المملكة الرومانية الشرقية في إنحطاط زائد وأصيبت بداء عضال تعذر البرء منه وهذه عاقبة كل مملكة تكثر فيها التعصبات الدينية والإختلافات المذهبية.

ولم يقتصر الملك هرقل فقط على إضطهاد النصارى الذين كانوا على غير مذهبه ومعتقده بل إشتد على اليهود أيضاً وذلك لأنه لما إنتصر الفرس أغراه بعض أئمة النصارى على الإيقاع بهم بعلة أنهم كانوا يعاونون ويحرضون الفرس على قتل المسيحيين وأنهم كانوا يشترون منهم الأسرى النصارى بمبالغ طائلة ويقتلونهم فإحتدم عليهم الملك غيظاً وأباح للنصارى قتلهم وسلب أموالهم وسبي نسائهم فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا ولاسيما في مدينة القدس فكانت كل هذه الأحوال سببًا في نفور الناس ولاسيما أقباط مصر من الروم وجورهم خصوصاً وأن الملك الذي كان قبل هرقل أنفذ أمرًا إلى نائبه بمصر بطرد جميع الأقباط من خدمة الحكومة ودواوينها وعدم قبول أحد منهم في مصالحها قصداً

منه في إذلالهم فكان ذلك من أقوى البواعث على قنوط الأقباط وإعتزالهم الروم بالكلية وقطع كل العلاقات معهم فتأصلت الكراهية بينهم بعد أن عاشوا معًا زمانًا طويلاً على أحسن حال قبل وجود هذه الإنشقاقات والإنقسامات المذهبية والإختلافات الدينية مع أن الفرق واه جدًا لايوجب كل هذه المصائب والرزايا التي حلت بالبلاد وأهلها وتسبب عنها دمار المملكة الرومانية الشرقية بأسرها . وكان كل ما إشتّد الضيق بالأقباط يزدادون تمسكًا برأيهم والطمع في نوال الإستقلال الديني الذي إشتروه بسفك دماء الألوف المؤلفة منهم .

وبينما كان الملك هرقل مهتمًا بتأييد مذهبه وإضطهاد مخالفيه في سوريا ومصر متشاغلاً بذلك عن إجراء ما فيه حفظ البلاد وصونها وراحة العباد وتنظيم أحوال مملكته ولم شعثها ظهرت الدولة العربية الإسلامية في شبه جزيرة العرب في أوائل الجيل السابع للميلاد وكان ظهورها قاضيًا على مملكة الروم الشرقية بالويل والخراب لأن الإختلال كان ضاربًا أطنابه في كل أنحائها آخذًا منها كل ما أخذ للأسباب التي ذكرناها ولما قصد العرب فتح سوريا وغيرها من البلاد التابعة لها لم يلاقوا صعوبات

كثيرة بسبب ما كان مستوليًا عليها من الفشل والإنقسام وميل الأهالي إلى من يحكمهم غير الروم مهما كانت عقيدتهم وديانتهم. ولما رأى هرقل ماكان من إستيلاء العرب على سوريا خاف على مصر التي لم يبق له في الشرق سواها لئلا يلحقها ما لحق غيرها وأراد أن يستبقيها له وإذ لم يكن في إستطاعته ذلك بالقوة بادر بعقد معاهدة مع الخليفة عمر بن الخطاب مؤداها أن هرقل يدفع إلى خزينة المسلمين جزية سنوية معلومة نظير تغاضيهم عن فتح مصر ولكنه لم يقم بدفع الكمية المتفق عليها ولذلك إعتبر الخليفة هذه المعاهدة لاغية لاعمل لها.

وكان بين قواد جنود العرب رجل يسمى عمرو بن العاص إشتهر بالشجاعة والبسالة وإصابة الرأي وحسن التدبير وجاء في بعض الروايات أنه كان قبل الإسلام يتعاطى التجارة فجاء إلى مصر غير مرة ورأى بالعيان ماكانت عليه البلاد من سوء الحال وميل الأقباط للتخلص من نير الروم الثقيل فأشار على الخليفة بفتح مصر. وذكر أيضًا أن محمدًا صاحب الشريعة الإسلامية أرسل في السنة السادسة للهجرة كتابًا إلى المقوقس

الذي كان واليًا على مصر من قبل الملك هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام فأكرم المقوقس رسله وأرسل معهم هدية من ضمنها جارية قبطية تسمى مارية إتخذها سرية فرزق منها بولد سماه إبراهيم ولكنه لم يعش ولم ترزق منه بغيره وقد إستنتج بعضهم أن من ذاك الحين كان بين المقوقس وزعماء العرب صلات وعلاقات سرية. ومقوقس على ما رواه بعضهم كلمة يونانية معناها (حاكم) والعرب يسمونه (عظيم القبط) أما إسمه فكان چورچ بن مينا وهو يوناني الأصل إلا أنه كان يميل للقبط ويرثي لحالهم وبعضهم ينسب للمقوقس مقاصد سياسية والله أعلم بما في القلوب.

وإتخذ عمرو بن العاص إلغاء عمر بن الخطاب المعاهدة التي كان أبرمها مع هرقل سببًا مناسبًا للإلحاح عليه بفتح مصر وسهل له ذلك بقوله أن أهلها أعجز الناس عن القتال وأن في فتحها عونًا عظيمًا للمسلمين فهي أكثر الأرض أموالاً وأجزلها خيرًا ومازال يهون عليه أمر فتحها حتى أجاب طلبه فأنفذه إليها في أربعة آلاف فارس من نخبة الجند وأبطالهم وكان عدد جنود عمرو يتزايد كل يوم بإنضمام القبائل البدوية التي كان يلتقي بها في طريقه.

وصار عمرو يخترق الهضاب والبطاح ويجوب الفيافي والبلاد

حتى وصل إلى حدود مصر فدخل مدينة العريش وذلك في سنة ٦٣٩ للميلاد أي سنة ١٨ للهجرة ومنها وصل إلى بلبيس[١] وفتحها بعد قتال طال أمده نحو شهر ولما إستولى عليها وجد بها أرمانوسة بنت المقوقس فلم يمسسها بأذى ولم يتعرض لها بشر بل أرسلها إلى أبيها في مدينة منف مكرمة الجانب معززة الخاطر فعد المقوقس هذه الفعلة جميلاً ومكرمة من عمرو وحسبها منه له.

وصار عمرو يتقدم إلى داخل البلد حتى وصل إلى بابلون[٢] بالجهة المعروفة الآن بمصر القديمة وكانت بها قلعة عظيمة جداً وحصن منيع.

فلما وصل عمرو إلى بابلون وجد الحصن عاضاً بأعظم أبطال الروم وأجنادهم فنزل أمامه بعسكره وحاصره وضيّق على من فيه وإستمر محاصراً له مدة سبعة أشهر موالياً الهجوم من وقت إلى آخر والمقوقس يتظاهر بمقاومة جنود العرب وصد هجماتهم فلم يشك أحد من رؤساء جنود الروم في إخلاصه

---

(١) ⲪⲁⲗⲂⲓⲥ كانت مدينة عظيمة ورأس قسم ولكن أحنى عليها الزمان فنابها ما ناب غيرها حتى خربت بالمرة بعد سنة ٨٠٦ هـ على يد دولة المماليك.

(٢) ⲂⲁⲂⲏⲗⲱⲛ ⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ أي بابل مصر.

لدولته. ولما طال الحصار وأبطأ الفتح طلب عمرو من الخليفة أن يمده بالرجال فأنفذ إليه أربعة آلاف مقاتل وقيل إثنى عشر ألفًا فتقوى بهم وشدد الحصار وجعل يتخابر مع الروم في أمر التسليم بالتي هي أحسن فأبوا كل الإباء غير أن المقوقس كان يميل إلى ذلك تخلصًا من الروم إلا أنه لم يستطع أن يكشف عن غامض رغبته ويجاهر بمكنون سريرته لأن رجاله ولاسيما الروم منهم لم يكونوا كلهم من حزبه ولما رأى تشديد الحصار وتجلد العرب على القتال عمد هو ومن معه من الذين كان يعتمد عليهم ويركن إليهم إلى الإنسحاب من الحصن فإنسحب منه وعبر نهر النيل وذهب إلى الجزيرة المعروفة الآن بالروضة وتحصن فيها وحصن مدينة منف أيضًا وترك الحصن في يد نفر قليل وكانت قيادة الجند موكولة لعهدة رجل من الروم يسمى الأعرج وهذا لما رأى أن المقوقس قد إنسحب من الحصن تبعه برجاله وبقي الحصن في عهدة عدد قليل من القبط لم يقووا على مقاومة العرب فعمدوا إلى الهرب قاصدين منف وكان بين الحصن ومنف جسران مصنوعان من مراكب مصطفة بعضها بجانب بعض ومن فوقها أخشاب ممتدة على عرض ثلاث قصبات وكان أحد

هذين الجسرين يوصل من الحصن إلى الجزيرة والثاني من الجزيرة إلى منف بالبر الغربي. فلما هرب القبط إلى الجزيرة إقتفي أثرهم العرب فتركوها وساروا إلى منف ورفعوا الجسرين فبقيت العرب بالجزيرة محاطون بالماء من كل الجهات. أما المقوقس فأمسك عن قتال العرب ومطاردتهم وبادر بإرسال كتاب إلى أميرهم عمرو بن العاص ظاهره التهديد بأنهم أصبحوا أسرى في أيد الروم محصورين بين ماء النيل من كل الجهات وأن الأولى به أن يرسل إليهم رجالاً من جماعته ليتداولوا في الأمر عسى أن يتمكنوا من الإتفاق على شيء يوافق الطرفين وينقطع عنهم القتال قبل أن تغشاهم جموع الروم. فكتب عمرو إلى المقوقس بأن ليس له ولجماعته مآرب سوى أمر من ثلاثة: (الجزية أو الإسلام أو إستمرار القتال حتى يقضي الله بما يريد).

فلما وصل الخبر إلى المقوقس جمع رجال حكومته وما زال بهم حتى تغلب على فكرهم فوافقوه على طلب الصلح على شروط تقرر برضى وإتفاق الفريقين فكتب المقوقس إلى عمرو بأن يرسل إليه رسلاً من عنده ليتداول معهم فيما عساه أن يكون

فيه صلاح له ولهم فبعث إليه بعشرة رجال أحدهم يسمى عبادة بن الصامت وأوصى أن يكون هو المتكلم عن القوم وألا يجيب المقوقس وجماعته إلى شيء إلا إحدى الثلاث خصال التي ذكرناها قبلاً. وكان عبادة هذا هائل المنظر أسود اللون طويل القامة. فلما وصلوا إلى منف ودخلوا على المقوقس تقدم عبادة إليه ليكلمه فلم يعبأ به وطلب أن يتقدم غير هذا الأسود فلم يرضوا قائلين بأنه أفضلهم وإن يكن أسود فإنهم مصرون على أن يكون هو المتكلم عنهم دون سواه فلم ير المقوقس بُدًّا من إجابة طلبهم وسمح لعبادة بالكلام وبعد مداولات طويلة ومحاجات كثيرة لم يتحول فيها عبادة عن أحد الثلاثة أمور كما أوصاه سيده إلتفت المقوقس إلى أصحابه الحاضرين معهم وكلمهم قائلاً (أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله مالكم بهم طاقة ولئن لم نجبهم إليها طائعين لنجيبنهم إلى ماهو أعظم كارهين). فقالوا وأية خصلة نجيبهم إليها قال (أما دخلوكم في غير دينكم فلا يسلم أحدكم به وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولابد من الثالثة (قالوا سنكون لهم عبيدًا) قال (نعم تكونون عبيدًا مسلطين في بلادكم آمنين

على أنفسكم وأموالكم وذراريكم فأطيعوني من قبل أن تندموا)
ومازال يحاججهم ويناقشهم ويقنعهم حتى أذعنوا للجزية ورضوا
بها على صلح يكون بينهم يعرفونه وحينئذ قال المقوقس لعبادة
إذهب الآن أنت وأصحابك وأعلم أميرك بأني مجيب له إلى
واحدة من الخصال الثلاث التي أرسل إلى بها فليضرب موعدًا
لأجتمع أنا به في نفر من أصحابي وهو في نفر من أصحابه
ليستقيم الأمر بيننا وإلا عدنا إلى ماكنا عليه . ولما إجتمعا تقرر
الصلح بينهما بوثيقة أن يعطي الأمان للأقباط ومن أراد البقاء
بمصر من الروم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وفي نظير ذلك
يدفع كل قبطي دينارين ما عدا الشيخ والولد والمرأة وأحصى من
دفع الجزية في هذه السنة من القبط فكان عددهم ستة ملايين
وقيل ثمانية . ولما تم الصلح بين العرب والقبط على هذه الكيفية
أرسل المقوقس إلى هرقل ملك الروم يخبره بما جرى ويعتذر عن
عدم إمكانه الإتيان بغيرماأتاه فغضب الملك غضبًا شديدًا وقبح
فعله ورأيه وأرسل له كتابًا يشف عن معلومية هرقل بكراهة
القبط للروم وحكومتهم حيث قال فيه : (إن ما أتاك من العرب
إثنى عشر ألفًا وبمصر من كثر عدد القبط ما لا يحصى فإن كان

القبط كرهوا وأحبوا أداء الجزية إلى العرب وإختاروهم علينا فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف فارس معهم العدة والقوة. والعرب وضعفهم على ما رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فإن فيكم على قدر قوتكم وكثرتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة ناهضهم القتال ولا يكن لكم رأى غير ذلك).

وكتب بمثل ذلك إلى جماعة الروم في مصر ولكن قد سبق السيف العزل فلم يكن في طاقة المقوقس ولا جماعته نقض المعاهدة ولو تنبه هرقل من قبل وأفاق من غفلته وأحسن معاملة الأقباط لكانوا أعظم مدافع عن البلاد والحكومة الرومانية ولكن الجزاء من جنس العمل. وجاء في بعض التواريخ أن جماعة المقوقس كانوا يمدون العرب سرًا في أثناء الحصار بالمؤنة والعلف. ولما وصل كتاب الملك أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص وأطلعه على مافيه وقال له: (إن هرقل قد كره ما فعلت وعجزني وكتب إلى وإلى جماعة الروم ألا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك

حتى يظفروا بك أو تظفر بهم ولم أكن بناكث عهدك وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني. وقد تم الصلح بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه. وما الروم فإن منهم برىء وأطلب إليك أن تجيب ملتمسي في ثلاثة أمور. الأول ألا تنقض عهد القبط وأدخلني معهم ألزمنى مالزمهم وقد إجتمعت كلمتي وكلمتهم على ماعاهدتك عليه فهم متمون لك على ماتحب. وأما الثانى فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيدًا فإنهم أهل لذلك لأنى نصحتهم فإستغشوني ونظرت إليهم فإتهموني. وأما الثالث فإني أطلب إليك أني إذا مت تأمرهم أن يدفنوني بجسرالإكسندرية فأجابه إلى ما طلب على أن يكون القبط أعوانًا له.

وفي قوله (إني نصحتهم فإستغشوني ونظرت إليهم فإتهموني) دليل على أن المقوقس بصفة كونه حاكمًا مسئولاً وأمين الدولة الرومانية لم يتأخر عن تمحيص النصيحة لدولته بأن الإستمرار على سوء معاملة الأقباط وهضم جانبهم ربما يجرهم إلى ما لا تحمد عواقبه فلم يلتفتوا إلى نصيحته ورموه بالغش والبهتان

وسوء النية وخبث الطوية وكأن الله أصم آذان الروم ليقضي أمرًا محتومًا . وأبي المقوقس وجماعته أن ينقضوا العهد أما الروم فهاجروا إلى الإسكندرية وحصّنوها وإستعدوا لمقاتلة العرب . ولما إستولى عمرو على منف وساد على مايليها من البلاد قصد فتح الإسكندرية فجمع رجاله وسار بهم حتى وصل إليها ونزل أمام أسوارها وحاصرها من كل جهة ماعدا جهة البحر فإنها كانت مفتوحة بين الروم وبين القسطنطينية فكانت تأتيهم منها المؤن والذخائر ولذلك طالت مدة الحصار وأخيرًا جمع عمرو كل رجاله وقواته وهجم على أبواب السور وفتحه وإذ كان عمرو في مقدمة الهاجمين دخل المدينة من هذا النقب وتبعه إثنان من رجاله أحدهما يسمى مسلمة بن مخلد والآخر وردان ولم يتمكن غير هؤلاء الثلاثة من الدخول حتى قفل باب السور فقبض عليهم وأتى بهم إلى حاكم المدينة فلما صاروا بين يديه قال لهم هوذا أنتم أسرى في أيدينا فأخبرونا ما الذي جاء بكم إلينا ومالذي حملكم على قتالنا فأجابه عمرو بغير خوف ولا رعب (قد أتيناكم ندعوكم إلى الإسلام فيكون لكم مالنا أو أن تدفعوا الجزية وأنتم صاغرون وإلا فلا نكف عن قتالكم فإن الله يأمرنا به إلا إذا أجبتمونا إلى إحدى الخصلتين)

فتعجب الحاكم من جواب عمرو وجراءته على حين أن من كان على حاله لاينتظر منه إلا التذلل والإستعطاف ثم إلتفت إلى من حوله من الروم وكلمهم بما معناه أن هذا الرجل لابد أن يكون من وجوه العرب وكبار قوادهم فلا ينبغي أن نتخلى عن قتله وكان وردان عارفًا باللغة اليونانية ففهم ماقاله الحاكم ولكي يُعلم عمرًا بما هو فى نية الحاكم لكمه مستهزئًا وخاطبه بما ظاهره التوبيخ على هذا الفضول والجراءة قائلا ما هذا الهذيان يارجل ومن أنت حتى تنطق بما نطقت أو أن تنسب إلى أسيادك ما قد نسبت من أقامك متكلمًا عنهم أو ما أدراك بمقاصدهم وما أنت إلا أحد صعاليكهم فاصمت ولا تعد للتدخل في مالا يعنيك) فإنطلت الحيلة على الحاكم وعرف أنه ليس كما كان يظن فأمسك عن قتله إلا أنه تعجب لجسارته وزاد تعجبه لما علم مما قاله وردان أنه أحد صعاليك العرب فقال في نفسه إذا كان صعاليكهم بهذه الحالة فماذا يا ترى يكون كبراؤهم. ثم تقدم مسلمة وقال بلسان الإعتدال (إعلم أيها الحاكم المعتبر أن أميرنا أقرب الناس إلى المسالمة لكونه يرغب قبل الإنسحاب أن يعقد مجلسًا مؤلفًا من كبار الجيشين فيتفقون على شروط الإنسحاب وإذا أذنتَ

بعودتنا إليه نخبره بما لاقيناه من حسن المعاملة وكرم الأخلاق)
فأعجب هذا الرأي الحاكم وأجابهم إلى ماطلبوا فإنصرفوا وهم
لا يصدقون أنهم نجوا من الموت حتى وصلوا إلى المعسكر وهم
على نية تشديد الحصار إلى أن يقضى الله بما يشاء . أما هرقل
الملك فإنه لما وصله كتاب المقوقس المنبىء بعقد الصلح حزن
حزنًا شديدًا على ضياع مصر التي لم يكن باقيًا لمملكة الروم في
الشرق غيرها وعرف أن هذا نتيجة الجور والعسف فندم ولكن
ماذا ينفع الندم وقد نفذ السهم فسخط عليه أهل دولته لما رأوا
فيه من الخمول وكيف أنه بعد ما رأى من إستيلاء العرب على
بلاده لم يبد حراكا فمات محزونًا مرذولاً غير مأسوف عليه
وعقب موته إنقسامات داخلية وحروب أهلية بسبب إدعاء
الملك ممن هم ليسوا من العائلة الملوكية فتشاغل الروم بذلك
ولاسيما أهل الحل والعقد ومَن بيدهم زمام الأمور عن صالح
المملكة وسلامتها وإنقاذها من الأخطار التي كانت تحف بها من
كل جانب وزيادة على ذلك أنه وجد في القسطنطينية ثلاثة
ملوك في وقت واحد فكان كل هذا موجبًا لضعف همة الروم
الإسكندريين الذين كانوا يقاومون العرب ولم يعرفوا لأي من

هؤلاء الملوك الثلاثة هم تابعون فهاجر بعضهم بحرًا ولما لم يقو مَن بقي منهم على الدفاع تغلب عليهم عمرو ودخل المدينة منتصرًا وكان دخوله في يوم الجمعة غرة شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة الموافق ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠ للميلاد وبإستيلائه على مدينة الإسكندرية تم له فتح مصر.

الأقباط في صدر الإسلام

إمارة عمرو بن العاص

لما فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية بعد أن حاصرها مدة أراد أن يجعلها عاصمة الدين كما كانت في الأيام الماضية منذ عهد البطليموسية إلا أن الخليفة لم يسمح له بذلك لبعد مسافتها عن دار الخلافة فعين المقوقس حاكمًا عليها وعلى جميع الوجه البحري وترك فيها حامية من العرب وعاد بمن معه من الجند إلى حصن بابليون ولم يرد أيضًا أن يقيم في مدينة منف بالبر الغربي لأن الخليفة لم يرغب أن يكون المسلمون في موضع يحول بينه وبينهم ماء فإختار له محلاً بين جبل المقطم وحصن بابليون وأقام فيه هو ورجاله ومن ثَمَّ أخذ هذا المحل

يعمر شيئًا فشيئًا حتى صار مدينة واسعة سُميت بالفسطاط أو فسطاط مصر وبعد ذلك بمصر القديمة وفسطاط بالعربية معناها الخيمة وسبب تسميتها بهذا الإسم أن عمرًا لما عزم على فتح الإسكندرية قصد رجاله أن يحلوا الخيام ليتأهبوا للرحيل فوجدوا أن خيمته قد أوكر في قمتها زوج من الحمام تحته صغاره فلما رأى عمرو هذا أمر أن تترك خيمته منصوبة قائلاً (معاذ الله أن نأبي حماية ذي حياة إستجار بنا فإتركوا خيمتي منصوبة حتى نعود إن شاء الله) ولما عاد وجدها كما تركها والطيور بها فبنى في مكانها جامعًا وبنى العرب حوله منازل فأصبحت مدينة وسماها بالفسطاط ومن ثم صارت عاصمة الديار المصرية ومركز الإمارة العربية إلى زمن الفاطميين الذين إبتنوا القاهرة الموجودة للآن وجعلوها مقر خلافاتهم كما سيأتي.

وكما عين عمرو بن العاص المقوقس حاكمًا على الإسكندرية والوجه البحري عين أيضًا أحد رجاله المسمى عبد الله بن سعد بن أبي سرح حاكمًا على الوجه القبلي أما هو فتولى إمارة مصر جميعها. ولما شرع عمرو في بناء مدينة الفسطاط كان القبط من أهم العاملين عل عمارتها ولاسيما

رجال الحكومة الذين كان معظمهم إن لم نقل كلهم من الأقباط فشيدوا بها القصور العالية والدور الرحبة والكنائس والديارات الواسعة والمنتزهات والبساتين النضرة وكان العرب يشجعونهم على ذلك لما فيه من العمران وهكذا أصبحت الفسطاط بهمة الأقباط الذين بذلوا النفس والنفيس في تشييدها مدينة زاهية زاهرة تحاكي في البهجة والرونق مدينة منف القديمة التي شيدتها أيدى الملوك الفراعنة وفي هذا دليل على إحكام الوفاق وتمكين العلاقات بين القبط والعرب في ذلك الزمن حتى أباحوا لهم بناء كنائس ومعابد متعددة في وسط الفسطاط التي هي مقر جيش الإسلام على حين أن المسلمين كانوا يُصلّون ويخطبون في الخلاء أو أنه لم يكن لهم غير جامع واحد الذي بناه عمرو بن العاص. أما منف فأخذت من ذاك الحين تنحط شيئًا فشيئًا لإرتحال سكانها عنها وتوطنهم بمدينة فسطاط الجديدة حتى تلاشت بالكلية وأصبحت أثرًا بعد عين ومحلها الآن قرية حقيرة تسمى ميت رهينة ببر الجيزة [1] فسبحان من يرث الأرض ومن عليها.

[1] الجيزه بالقبطية ⲡⲉⲣⲉⲓⲱⲓ ϯⲡⲉⲣⲉⲓⲥ ولا نعلم ما سبب تسميتها في العربية بالجيزة.

وكان للمقوقس نسيب يسمى الهاموك كان حاكمًا على دمياط[٢] وما يليها فلم يُسَلِّمْ وأبى إلا المقاومة فأرسل إليه عمرو بن العاص فرقة من العرب فحاربوه وقتلوا أحد أولاده فجمع كبراء البلد ووجهاء القوم ليشاورهم في الأمر فقام من بينهم رجل وطني وقال (إعلم أيها الأمير أن العقل لا قيمة له وما إستغنى به أحد إلا وهداه إلى سبل الفوز والنجاة من المعاطب وقد رأينا أن هؤلاء العرب لم تنخفض لهم راية ولم ينكس لهم علم ولسنا نحن بأشد قوة من جيوش الشام . فالرأي عندي أن نعقد الصلح معهم لننال الأمن ونفوز بصون حرمنا ونأمن من سفك الدماء كما فعل المقوقس وماأنت بأكثر منه رجالاً ولا أمضى منه عزيمة) فإستقبح الهاموك رأيه ولم يتم الرجل كلامه حتى إنقض عليه كالأسد الضارى وقتله بيده شر قتلة جزاء نصيحته وكان له ولد قد شق عليه هذا الأمر فقصد الإنتقام لأبيه. وكان له دار ملاصقة لسور المدينة فلما جن الليل تسلق السور وخرج إلى العرب ودلهم على عورات البلد وكيف يتمكنوا منها فدخولها وإستولوا عليها ولما لم يستطع الهاموك المدافعة إستأمن ونجا ثم

---

[٢] بالقبطية TAMIAΘH .

خرج ولده وكان قد أسلم أيضًا وحشد جيشًا من أقباط أهل البرلس [١] والدميرة [٢] وغيرهما من البلاد المجاورة وأمد به المسلمين وحاربوا أهل تانيس [٣] وقتل إبن الهاموك في هذه المعركة وإنتهى الأمر بأن تغلب المسلمون عليها وفتحوها عنوة. وكانت تانيس هذه من أعظم مدن الوجه البحري وأفخرها إشتهرت إلى مابعد الفتح الاسلامي بزمن بصناعات المنسوجات الحريرية على أنواع مختلفة وكانت قائمة في وسط بحيرة المنزلة وقد إندثرت الآن ولم يبق منها أثر.

ولما ثبت قدم العرب في مصر شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين وإستمالة قلوبهم إليه وإكتساب ثقتهم به وتقرب سراة القوم وعقلائهم منه وإجابة طلباتهم وأول شيء فعله من هذا القبيل إستدعاء بنيامين البطريرك الذي سبق القول أنه إختفي من أمام هرقل ملك الروم وذلك أنه كان بين رؤساء الأقباط المتقربين من عمرو واحد يسمى شنوتي (شنوده) فتقدم إليه وأعلمه بخبر البطريرك وما كان من أمر هروبه وإختفائه

---

[١] ⲡⲁⲣⲉⲗⲗⲟⲩ [٢] ϯⲙⲁⲏⲓ [٣] ⲑⲉⲛⲏⲥⲓ

وطلب منه أن يأمر بعودته فلبى طلبه وكتب أماناً وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور ولا خوف عليه ولاتثريب. ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه وأظهر له الولاء وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل ورد بنيامين إلى مركزه الأصلي معززاً مكرمًا وهكذا عادت له المياه إلى مجاريها وبعد إختفائه مدة طويلة قاسى فيها ما قاسه من الشدائد وكان بنيامين هذا موصوفًا بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم) وقيل أن عمرًا لما تحقق ذلك منه قربه إليه وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها وقد حسب الأقباط هذا الإلتفات مْنة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو. وأمر عمرو بأن من لايرغب من الروم البقاء في مصر فليخرج منها بأمان ومن يفضل البقاء تضرب عليه الجزية ويكون له ما للأقباط وعليه ما عليهم. وكان عدد الروم بمصر ينوف عن ثلثمائة ألف نفس فهاجر أغلبهم ولم يبق منهم إلا من كانت له علاقات ومصالح لا تسمح له بالخروج منها والإبتعاد عنها. وإنتهز القبط خروج الروم فرصة مناسبة فوضعوا

يدهم على كثير من كنائسهم وأديرتهم وملحقاتها بدعوى أنها كانت في الأصل مِلكًا لهم والروم نزعوها من يدهم قوّة وإقتدارًا بسبب ما كان بينهم من الشقاق ومن ذلك الحين عاش الروم بالحسنى وإنتهت من بينهم المنازعات والمخاصمات التي كانت تفضي إلى قتل الألوف المؤلفة لزوال أسبابها .

ثم أخذ عمرو في تنظيم البلاد وإذ كان يعلم أن صاحب الدار أدرى بما فيها إستعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي والوالي معًا فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلاً منها حاكم قبطي له إختصاصات وحدود معينة ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم ورتب مجالس إبتدائية وإستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة وإستقامة وعين نوابًا مخصوصين من القبط ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية فكانوا بذلك في نوع ما من الحرية والإستقلال المدني وهي ميزة كانوا قد جُرِدّوا منها في أيام الدولة الرومانية ولذا لم يجعلوا الحكومة في راحة بال كما تقدم القول . وضرب الخراج على البلاد بطريقة عادلة وولى عليه متولياً من ذويه يقبضه على أقساط في آجالٍ

معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد . ورتب الدواوين فإختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابية والحسابية وكانت كلها تجرى باللغة القبطية وبلغ ماجباه عمرو من الخراج في السنة إثنتي عشر مليونًا من الدنانير مع أن الذي كان يجبيه المقوقس في أيام الروم لم يكن أقل من ثمانية عشر مليونًا . وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ أزمان .

ولما مات الخليفة عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان الخلافة بعده فصل عمرو بن العاص عن مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة وهو الذي كان حاكمًا على الوجه القبلي في إمارة عمرو بن العاص كما مر . ولما تولى الإمارة جبا في أول سنة أربعة عشر مليونًا من الدنانير أي بزيادة مليونين عما كان يجبوه عمرو بن العاص فُسرَّ الخليفة بهذه الزيادة وقال لعمرو يومًا مفتخرًا بذلك (يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول) أي قد زاد الإيراد عما كان في أيام إمارتك . فقال له عمرو على الفور (قد أضررتم بولدها) أي أن هذه الزيادة لابد أن تضر بأهل البلد لأنهم لم يزيدوا في العدد عما كان قبلاً وماهي إلا نتيجة ضرائب جديدة قد أوجدها عبد الله

بن أبي سرح ليظهر الفرق بينه وبين سلفه حتى يكون مقبولاً عند أمير المؤمنين.

وفي خلال ذلك كان الروم في القسطنطينية يفكرون في إسترجاع مصر فلما إستقرت أحوالهم وزالت الإرتباكات الحاصلة بسبب الطامعين في الملك جردوا حملة لإنقاذها من يد العرب فساروا بمراكبهم حتى دخلوا الإسكندرية وحاولوا النزول بها فمنعهم المقوقس من ذلك فنزلوا بساحلها وإنضم إليها من كان بها من الروم الذين نقضوا العهد أما المقوقس والقبط فتمسكوا بعهدهم مع المسلمين ودافعوا عن المدينة ما إستطاعوا فخرج الروم منها وصاروا يعيثون فساداً في القرى وينهبون ما بها ويقتلون سكانها فخاف أهل مصر سوء العاقبة وإجتمعت كلمة القبط والعرب على أن يطلبوا من الخليفة أن يأذن لعمرو بن العاص في العودة إلى مصر لمقاتلة الروم لتدربه على الحرب وهيبته في عين العدو فأجاب طلبهم وأرسله فصار يحاربهم ويقاتلهم حتى أبعدهم عن المدينة فركبوا سفنهم وعادوا إلى بلادهم بالخيبة ولم يرجعوا وكان القبط يحاربون في هذه الواقعة مع العرب ويقاتلون الروم خوفاً من أن يتمكنوا من البلاد ويأخذونها

فيقع الأقباط في يدهم مرة أخرى وبذلك ينتقمون منهم لتفضيلهم العرب عليهم فتكون الواقعة الثانية شرًا من الأولى .

ولما إنتهى عمرو من قتال الروم أراد الخليفة أن يكافئه على أتعابه الكثيرة في هذه الحرب الأخيرة بأن يوليه رئيسًا على جند مصر وعبد الله بن سعد على خراجها فلم يرض عمرو بذلك وإنصرف عنها ولم يعد إليها إلا في سنة ٣٨ للهجرة .

أما عبد الله فبقي واليًا على مصر ولكنه لم يحسن التدبير لمعاملته الناس بالجور والعسف فكرهه المسلمون والنصارى وفي أيامه تفشى بالبلاد وباء شديد وقحط تسبب بهما موت خلق كثير من المصريين فإزدادت كراهتهم له وتشاءموا منه وهموا إلى خلعه فذهب إلى الخليفة وفد من العرب مؤلف من ألف رجل وكاشفوا الخليفة بحالهم وجور عبد الله بن سعد وطلبوا منه عزله بالتي هي أحسن ملحين عليه فلم ير بُدًا من إجابة طلبهم رغمًا عن ميله له وولى مكانه محمد بن أبي بكر الصديق أول الخلفاء بعد الرسول لكنه لم يصل إليها إلا في خلافة الإمام علي بن أبي طالب .

وفي أثناء ذلك قتل عثمان وتولى الخلافة بعده الإمام علي

بن أبي طالب فعزل جميع الولاة وولى غيرهم من المتقربين إليه فكرهه بعض كبار المسلمين وتشيعوا لعثمان بن عفان المقتول وكان من ضمن المتشيعين معاوية بن أبي سفيان الذي كان واليًا على الشام فصار يخطب في الناس ويبث في أذهانهم أن علي بن أبي طالب هو القاتل لعثمان ويحرضهم على الأخذ بثأره وساعده على ذلك عمرو بن العاص فإشتدت الفتنة وإضطرمت نارها في كل الولايات حتى في المدينة التي هي مقر الخلافة. وأرسل الخليفة واليًا على الشام بدل معاوية فطرده أهلها وبايعوا معاوية على أن يكون خليفة فإستفحل أمره وقويت شوكته وهكذا كان للمسلمين خليفان: علي بن أبي طالب في المدينة ومعاوية في الشام ولذلك إنقسموا إلى شطرين.

ورأى بعض كبار المسلمين أن أحسن واسطة للهدوء والسكينة هو قتل زعماء المتشيعين وهم على ومعاوية وعمرو بن العاص فإختاروا لتنفيذ هذا الغرض ثلاث رجال ولكن لم تدر الدائرة إلا على على بن أبي طالب فإنه قتل بيد أحد هؤلاء الثلاثة والآخران نجيا. وبموت على خلا الجو لمعاوية وقويت شوكته وإعترف له الكل بالخلافة فقتل جميع أقرباء علي حتى

لايكون له منازع ولا مخاصم وجعل مقر الخلافة في دمشق الشام. أما ماكان من أمر مصر فإن معاوية لما بايعه أهل الشام بالخلافة طلب من عمرو بن العاص أن يفتحها بإسمه (بإسم معاوية) ويكون والياً عليها مادام حيًا. فقبل عمرو بهذا الشرط وسار إليها في ستة آلاف فارس ولما وصلها أرسل ينصح محمد بن أبي بكر الذي كان واليًا من قبل الإمام على (كما مر) أن يخرج منها بأمان فأبي إعتمادًا على أن الخليفة يرسل إليه مددًا فقاتله عمرو وظفر به وقبض عليه وقتله بأن وضعه في جلد حمار وأحرقه بالنار وهكذا تم فتح مصر بإسم معاوية على يد عمرو بن العاص الذي فتحها في الأول في أيام عمر بن الخطاب وبقي واليًا عليها كعهده مع معاوية إلى أن توفي بها في سنة ٤٣ للهجرة. وبموت الإمام على بن أبي طالب إنتهت مدة الخلفاء الراشدين الذين تولوا الخلافة بعد الرسول وعددهم أربعة وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن إبي طالب ثم إنتقلت الخلافة إلى الدولة الأموية التي أول خلفائها معاوية بن أبي سفيان المار ذكره وكانت الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين إنتخابية فجعلها وراثية وإنحصرت في ذريته تنفيذاً

لمآربه وبقيت في يدهم نحو تسعين سنة.

القبط في عهد الدولة الأموية

بينما كان الخلل مستوليًا والفشل سائدًا في كل أنحاء المملكة العربية بسبب هذه المنازعات كان الأقباط في مصر ملازمين الهدوء والسكينة والحيادة فلم يخطر على بالهم قط شق عصا الطاعة أو التخلص من نير العرب ولو أرادوا ذلك لأمكنهم بالنسبة لما كانت عليه البلاد من حالة الفوضى وإنقسام العرب إلى أحزاب لكنهم آثروا الإستمرار على التمسك بالمعاهدة التي أبرمت معهم على يد عمرو بن العاص حينما فتح مصر في المرة الأولى ولم يدر في خلدهم أبدًا نقضها ولا الإنحياز لفريق دون آخر بل كانوا مسالمين للجميع والكل راضون عنهم ولما عاد إليهم عمرو بن العاص في أيام معاوية (كما مر) فرحوا به ولما مات حزنوا عليه وكان لهم الحق في ذاك الحزن لأنه لم يتول على مصر أميرًا أحسن التدبير مثله كما سنرى. وبعد موته بأيام قلائل مات أيضًا بنيامين البطريرك بعد أن قام في الرئاسة تسع وثلاثين سنة جدد في أثنائها بعد عودته من الهرب ديارات

الرهبان ببرية شيهات[١] بوادى النطرون التي كان هدمها الفرس مدة إستيلائهم على مصر في أيام الملك هرقل وبعد موته تولى البطريركية الأنبا أغاثون فبنى بالإسكندرية دارًا واسعة وكنيسة على إسم مار مرقس بدل التي كان هدمها العرب عند ما فتحوا الإسكندرية عنوة.

ومما حبب الأقباط في عمرو وجعلهم يميلون إليه كل الميل أنه كان مراعيًا في كل تصرفاته مصلحتهم وراحتهم فلم يجب منهم في مدة إمارته من الأموال أكثر مما صولحوا عليه بغير زيادة أو نقص ولا في غير آجالها المضروبة لجمعها وتحصيلها رغمًا عن إلحاح الخليفة عليه في إمداده بالخراج ومازال عمرو يدافع عن أهل البلاد حتى أقنع الخليفة أن إلحاحه هذا يضطر الناس إلى بيع ما لاغنى لهم عنه وفي ذلك خرق للعهود ولكن لم يخل الحال من وجود مناظر لعمرو على ولاية مصر وحمل الخليفة على تونيبه ولكن كل هذا لم يؤثر في عمرو أو يجعله يضيق على

(١) كلمة قبطية معناها ميزان القلوب وهي مركبة من ϣⲓ ميزان او كيل ϩⲏⲧ قلب. وتسمي أيضاً إسقيط وبالقبطية ⲠⲒⲀⲤⲬⲎⲦⲎⲤ ومعناه دار الناسك.

الناس ليرضي أمره كما فعل عبد الله بن سعد وكانت نتيجته العزل والفصل . ومن حسن حظ عمرو بن العاص أنه لم يحصل في أيامه جدب ولا نقص في النيل ولو حصل لرفع عنهم الخراج بقدر النقص .

قلنا فيما تقدم أن المقوقس لما رأى تغلب العرب على حصن بابليون جمع رجال حكومته وكبار الأقباط وأشار عليهم بالتسليم وأداء الجزية فأبوا أولاً لأن قبولهم دفع الجزية يجعلهم عبيدًا فقال لهم (إنكم وإن تكونوا بدفع الجزية عبيدًا إلا أنكم تكونوا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأحوالكم وذراريكم) فأذعنوا . وفي الواقع أن القبط كانوا هم المسلطين في بلادهم وبيدهم كل شيء وعاشوا آمنين على أنفسهم ومالهم ولم يكن للعرب سلطة عليهم إلا في تحصيل الخراج وجمع الجزية التي قاموا بدفعها عن طيب خاطر راضين بما قسم الله لهم وإستمروا على هذه الراحة إلى سنة ٦٥ هـ الموافقة ٦٨٣ م حتى أخذت الأحوال تتغير نوعًا وذلك أن مروان الخليفة ولىّ إبنه المسمى عبد العزيز أميرًا على مصر فأعلى الضرائب والعوائد ليس على الأقباط فقط بل على جميع المصريين سواءً كانوا من

أهل البلاد أو من المستوطنين فيها ولكنه خص الأقباط بزيادة الجزية التي فرضها أيضًا على طائفة الإكليروس مع أنهم كانوا إلى هذا التاريخ معافين منها فألزم كل واحد منهم بدفع دينار في السنة والبطريرك بثلاثة آلاف دينار. وجاء في بعض التواريخ أن عبد العزيز هذا كان جوادًا حليمًا بشوشًا. وأنه في سنة ٧٠هـ تفشى الطاعون بمصر فخرج من الفسطاط وأتى حلوان فأعجبه موقعها فإتخذها دارًا له ونقل إليها بيت المال[١] وكان الأمين عليه رجل قبطي يسمى أنيتاس. وإبتنى بها القصور الشاهقة وزينها بالبساتين الناضرة وإذ كان القبط في ذاك الحين هم أهل البلاد وذوي الثروة والإقتدار على الأعمال وعليهم مدار العمران بخلاف العرب الذين كان معظمهم من الجند المحافظين على الأمن وسلامة البلد كلف عبد العزيز أهل اليسار من القبط أن يبني كل منهم له دارًا بحلوان التي كان يريد أن يجعلها مدينة تحاكي الفسطاط لتكون مقر الحكومة وعاصمة الديار المصرية وكلف أيضًا البطريرك الموجود حينذاك وكان إسمه إيساك أن يبنى له فيها دارًا وكنيسة حتى يرغب باقي الأقباط في التوطن بها

(١) أشبه بالمالية الآن.

فتصبح مدينة عامرة وكذلك عبد العزيز إهتم ببناء الدور الواسعة والمساجد العظيمة بها وإذ كان هذا يحتاج إلى نفقات جسيمة لا يبعد أن يكون قد زاد على الأقباط شيئًا يدفعونه مع الجزية ليتساعد به على تنفيذ مشروعه وبذلك تحصل على مبالغ كافية والقليل كما يقال في الكثير كثير.

وجاء في كتاب سيرة البطريرك إيساك الموجودة نسخته بمتحف لوندره مانصه «أنه (أي البطريرك) كان يكثر التردد على حلوان لزيارة الأمير عبد العزيز الذي أمر أراخنة الصعيد وكل القرى أن يبني كل واحد لنفسه مسكنًا بحلوان المدينة» وجاء في موضع آخر من الكتاب المذكور ما نصه «وبعد ثلاث سنوات أطلق الأساقفة إلى كراسيهم ليستعدوا لبناء بيعتين في حلوان وكان الأساقفة ينفقون من عندهم على عمارتها ووكل الوالي بعمارتها اغريغوريوس أسقف القيس»[1] ومما ذكر يعلم أن كان بين البطريرك وعبد العزيز ود وإئتلاف ولم يكن جافيًا

(١) ⲭⲁⲃⲓⲥ ⲕⲁⲏⲥ بمديرية المنيا. كانت مدينة عظيمة جداً إشتهرت بصناعة المنسوجات الصوفية ولا سيما التي كانت تسمى بالمرعز وقد تخربت الآن ولم تبق إلا أطلالها.

على النصارى وربما تكون هذه النسبة لأنه كلف الأساقفة ببناء كنيستين على نفقتهم وتكليفه أهل اليسار من الأقباط ببناء مساكن لهم بحلوان التي كان كلفًا بعمارتها وتشييدها لشدة غرامه بها وجودة هوائها وحسن مواقعها . وورد في بعض تواريخ القبط أن عبد العزيز كان له ولد يسمى الأصمع كان أبوه قد ولاه على خراج مصرفًا على الضرائب والعوائد وشدد في تحصيلها وكان بالصعيد رجل مشهور يسمى بطرس أسلم هو وأخوه تاودورا بسبب المغارم التي ألزمها الأصمع بدفعها وأسلم أيضاً شخصًا آخر يسمى تاوفانوس بن عمدة مريوط (١) فتبعهم كثيرون آخرون. ولما مات عبد العزيز في سنة ٨٦ هـ، بعد أن حكم أكثر من عشرين سنة تولى إمارة مصر عبد الله بن عبد الملك أخيه وكان كريهًا للنصارى فإشتد عليهم وعمل على نزع الكتابة في الدواوين من أيديهم ونقلها إلى اللغة العربية بعد أن كانت إلى ذلك الوقت بالقبطية والقائم بها وبسائر الأعمال الإدارية والحسابية هم الأقباط تحت مباشرة رئيس منهم يسمى أنيتاس أو أثناس (وهو الذي كان أمينًا على بيت المال كما تقدم) فعزله وولى

---

(١) ⲙⲁⲣⲓⲱⲧⲏⲥ .

مكانه شخصًا يسمى إبن يربوع الفزاري من حمص. ولما رأى القبط أن هذا التغيير يعود عليهم بالضرر العظيم ولكي لا يفقدوا مركزًا مهمًا كهذا في الحكومة عولوا بإجتهاد على تعلم اللغة العربية فنالوا مبتغاهم وأتقنوا فن الكتبة والحساب بها وتفننوا فيهما وجعلوا لحساباتهم قواعد وروابط مخصوصة. ونقلت أيضًا أسماء البلاد إلى العربية فتحرفت عن أصلها كما ترى.

وحينئذ كثر العرب في مصر وإنبثوا في أنحائها وإتخذوا الزراعة كسبًا ومعاشًا لهم وعاشروا الأقباط وإختلطوا بهم فكان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. ولما رأى الأقباط أن المسلمين معافون من دفع الجزية التي قد أصبحت وقرًا ثقيلاً على عاتقهم بسبب الزيادات التى كان يضيفها عليهم بعض الولاة خلافًا للعهد وما كان يصيبهم من متولى الخراج من الجور والعسف في تحصيلها آثر بعضهم الإسلام تخلصًا منها ورغبة في التمتع بالمزايا التي كان يتمتع بها المسلمون فتسبب عن ذلك نقص الإيراد فعمل بعض الولاة على مداركة بعضه بربط الجزية على الرهبان فسار بجنده إلى الديارات بوادي هبيب (برية شيهات) في الوجه

البحري وهجم عليها فوجدها غاصة بالرهبان فأحصاهم وقيل بلغ عددهم أكثر من ستة آلاف راهب [1] فألزم كل واحد منهم بدفع دينار سنويًا وتجاوز الحد في ذلك بأن أمر أن يلبس كل راهب خاتمًا من حديد في أصبعه مكتوبًا عليه إسمه وإسم

---

(١) هذا ما رواه بعضهم وقد لا يكون خاليًا من المبالغة والذي نراه أن نقص الإيراد بسبب إعتناق الكثير من الأقباط الديانة الاسلامية ليس هو السبب الوحيد في تشديد الولاة على الرهبان وربط الجزية عليهم بل يمكن أن يقال وهو قول قريب الإحتمال أن العرب في ذاك الحين ما كانوا يجهلون القلاقل والإضطرابات التي كانت تحصل في أيام الدولة الرومانية وما كان يعانيه الحكام من تجمهر الرهبان بسبب الشقاقات الدينية والإختلافات المذهبية ولما رأى بعض ولاة العرب أنه يوجد في ديارات برية شيهات وحدها عدد عظيم من الرهبان كهذا خشي حدوث ما يخل بالنظام فعمد إلى ربط الجزية عليهم وشدد في تحصيلها لفائدة الخزينة من جهة ونقص عددهم من جهة أخرى. ويؤيد هذا الفكر ما قرأته في بعض التواريخ الإفرنجية من أنه حصل مرة في أيام العرب أن بعض أهالي الوجه البحري من الأقباط والروم ثاروا على الحكومة وكان بطريرك الأقباط في مقدمة الثائرين منهم وكذلك رئيس الروم الديني فحاربهم الحاكم وقهرهم وقبض على الإثنين فضرب عنق الرئيس الرومي بسيفه بغير توان. أما بطريرك الأقباط فأبقاه ولم يطلق سبيله إلا بدفع مبلغ طائل جداً قام بدفعه هو وكبار الأقباط فداء حياته.

ديره يسلمه إليه جابي الخراج عندما يدفع له ما هو مقرر عليه من الجزية وإذا وجد واحد منهم غير لابس له تقطع يده وإذا أصر على المخالفة يقتل وتكرر الهجوم على الديارات وهدمها وقتل من بها من الرهبان الغير حاملين هذا الوشم ولم يكتف بذلك الولاة الذين عملوا على الإتيان لهذا الأمر المنكر بل كانوا يلزمون البطاركة والأساقفة من وقت لآخر بدفع مبالغ طائلة كغرامة وألزموهم أيضاً بدفع جزية سنوية ليست بمثابة الجزية التي كانت تفرض على أفراد الناس بل بمقادير وافرة جداً ومن تأخر منهم عن دفع الغرامة أو الجزية أهانوه حتى قيل أن بعضهم أُلزم عشرة آلاف دينار مرة واحدة وإذ لم يقدر على دفعها توسط بعض كبار الأقباط المتوظفين لدى الوالي في تخفيضها إذا لم يرد معافاته منها فأجيب طلبهم بأن جعلها نصف ذلك المبلغ وإذ لم يكن لدى البطريرك المحكوم عليه بهذه الغرامة ما يفي وزعها كبار الأقباط على أنفسهم وقاموا بدفعها من عندهم حفظاً لكرامة رئيسهم فكان هذا الظلم الفاضح من أكبر الدواعي العاملة على تبديد شملهم وأقبل عدد كثير من جمهورهم على إعتناق الدين الإسلامي تخلصاً مما لحقهم من الظلم.

ولما رأى بعض الولاة أن إقبال النصارى على الإسلام يضر بالجزية لم يعفِ من أسلم منها وإستمر على تحصيلها منهم فبلغ ذلك الخليفة فكتب إليه يقبح عمله فجاوبه معتذرًا عما أتاه بأن الإسلام قد أضر بالخزينة ضررًا إضطره إلى إقتراض عشرين ألف دينار ليُتم بها رواتب أهل الديوان فكتب إليه الخليفة يعذره ويأمره أن يضعها عمن أسلم وأمر رسوله أن يضربه عشرين سوطًا على رأسه جزاء ما أتاه من المخالف. ورفعت الجزية عمن أسلم من النصارى ووزعت على إخوانهم الباقين على دينهم وكذلك كانت توزع جزية من يمت منهم على الأحياء ويلزمون بأدائها طوعًا أو كرهًا.

وممن إشتهر بالجور والعسوف من عمال الخراج في عهد دولة الأمويين رجل يسمى أسامة بن يزيد فإنه فرض على كل مصري بغير تمييز ضريبة مقدارها عشرة دنانير يدفعها المار في النيل صاعدًا أو نازلاً فلم يستطع أحد المرور إلا إذا كان بيد أمر مؤذن له بذلك قد تحصل عليه بعد أداء المبلغ المفروض. ومما يحكى أن أرملة سافرت في النيل مع إبن لها فحدث أن إبنها كان يستقي من الماء فإختطفه تمساح وإبتلعه بثيابه على مشهد من

الناس الذين كانوا معه في المركب وكانت تذكرة المرور في جيبه فلما وصلت أمه المسكينة إلى المكان المقصود طالبها أصحاب التذاكر أعوان أسامة بتذكرة المرور فأخبرتهم بما كان من أمر ولدها وأن التذكرة ضاعت معه فلم يقبلوها منها عذرًا ولم يفرجوا عنها حتى باعت ما بين يديها أو أنها جمعت ما كان مطلوبًا منها من أهل البر والإحسان وهذا بعض ما فرضه على أهل البلاد من الضرائب الفادحة حتى أجمع مؤرخو المسلمين والنصارى على جوره وإستبداده.

ولما تولى هشام بن الملك الخلافة في سنة ١٠٥ هـ، شكا إليه الأقباط من ظلم عمال الخراج فأصدر أمره للوالي بوجوب معاملتهم بمقتضى العهد الذي بيدهم ولكن لم يجد هذا نفعًا ولا فائدة بل كان سببًا في مشاركة الوالي مع عمال الخراج على التضييق والتشديد عليهم ولما لم ير القبط منهم إلا الإصرار على عدم تغيير خطتهم نزعوا إلى التوقف والمقاومة ولما كانت سنة ١٠٧هـ إعتصب أهل تنوديمي وقربيط وعامة الحوف الشرقي بالوجة البحري وتوقفوا عن دفع الأموال فأرسل إليهم الوالي جندًا فحاربوهم وقتل في هذه الواقعة من الفريقين خلق كثير.

ولما بلغ الخليفة خبر هذه الحادثة وعرف سببها خشى سوء العاقبة بإنتقاض جميع الأقباط في الوجهين القبلي والبحري فعزل الوالي وولى آخر مكانه وأمره أن يحصي أهل البلاد ويوزع عليهم الخراج بطريقة عادلة وألا يخرج في ربط الجزية عن حد ما صولحوا عليه مع عمرو بن العاص وبمقتضى العهد الذي بيدهم ففعل كما أمر وبلغ عدد القبط في هذا الإحصاء أكثر من خمسة ملايين من الذين يدفعون الجزية عدا النساء والشيوخ والصبيان فإرتاحوا نوعًا مدة ولاية هذا الوالي التي دامت تسع سنوات ولما مات أَخلفهُ رجل يسمَّى حنظلة بن صفوان وهذه ثاني مرَّة تولَّى فيها إمارة مصر وكان عاتيًا غشومًا رغمًا عن رغبة الخليفة في معاملة أهل البلاد بالرفق والمعروف فلم يكتف بالضرائب المفروضة على الأطيان وعوائد الأملاك والجزية المفروضة على الناس بل فرضها على الحيوانات أيضًا وأساء معاملة الجميع ولا سيما المسيحيين منهم فكان أقل جزاء عنده قطع يد من لا يجده منهم حاملاً وصلاً مختومًا بختم عليه صورة أسد فهاج أهل الصعيد وقاموا على عمال الخراج وأخرجوهم من بلادهم وحصلت بينهم وبين جنود الوالي واقعة عظيمة قتل فيها خلق

كثير. كل هذا وحنظلة لا يزيد إلا جوراً وعسفًا فشكوه إلى الخليفة فعزله وولى مكانه رجلاً يسمى الوليد عرف عند المصريين عمومًا بالعدل والإستقامة وحسن التدبير ولكن من سوء الحظ لم تدم ولايته أكثر من سنة.

وفي أثناء ذلك توفي الخليفة هشام بن عبد الملك فأسف الجميع لموته ولاسيما النصارى لأنه لم يميز في أحكامه بين مسلم ونصراني أو يهودي وكان يشدد على الولاة في جميع الولايات التابعة له بإنتهاج منهج العدل في أحكامهم وإنصاف المظلوم بصرف النظر عن الدين والجنسية. وفي أيامه حارب المسلمون الروم وتغلبوا على كثير من بلادهم وسبوا كثيرًا منهم وكان العرب يأتون بالأسرى إلى البلاد ويبيعونهم فإبتاع الأقباط عددًا وفيرًا منهم وحرروهم وممن إشتهر بهذا العمل الجليل بطريركهم الموجود حينئذ فإنه صرف أموالاً طائلة في شرائهم وتحريرهم إبتغاء مرضاة الله فنال بذلك ثوابًا عظيمًا وذكرًا حسنًا.

وبعد موت هشام بن عبد الملك أخذت الدولة العربية الأموية في الإنحطاط والتقهقر وإنتهت بظهور دولة أخرى عربية تسمى الدولة العباسية وكان آخر خلفاء الدولة الأموية يسمى

مروان . ومن حوادث أيامه أنه كان بمصر وال يسمى عبد الملك بن موسى كان غليظ الطبع سيىء الخلق كثير الطمع مستبدًا أداه طمعه إلى إلزام النصارى بدفع مبالغ طائلة وألزم البطريرك والأساقفة بدفع غرامة لم يكن في طاقتهم أداؤها فطلب إليه البطريرك أن يمهله حتى يطوف البلاد ويجمع المال من أهل الخير فصرح له بذلك فقام قاصدًا الوجه القبلي فوجد جماعة الأقباط في ضنك شديد بسبب الغرامات التي فرضها عليهم هذا الوالي وتشديد رجاله في تحصيلها فحزن حزنًا شديدًا ولم يدر ماذا يفعل وصار ينتقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى أخرى حتى وصل أقصى الصعيد . وقيل أن كرياكوس ملك النوبة لما علم بذلك غضب من سوء معاملة الوالى للبطريرك والأقباط لأن أهل النوبة كانوا إلى هذا الوقت باقين على دين النصرانية تابعين للبطريركية القبطية فجمع جيشًا عرمرمًا وسار به إلى مصر وصار يعيث في البلاد إلى أن صار على مقربة من الفسطاط فلما علم بذلك عبد الملك بن موسى الوالي إنزعج وتحير في أمره لعدم إمكانه محاربته نظرًا لقلة عساكره وماكانت عليه البلاد حينئذ من الضعف والإختلال بسبب ظهور أبي العباس

مؤسس الدولة العباسية وأول خلفائها وإشتغال مروان آخر خلفاء الدولة الأموية بمحاربته. فلما علم عبد الملك بن موسى بسبب مجيء ملك النوبة إستدعى البطريرك وأبرأ ذمته من المبلغ الذي كان فرضه عليه وأوعز إليه أن يتوسط في الصلح بينه وبين ملك النوبة فأجاب طلبه ومازال بالملك حتى عاد إلى حيث آتى.

وحدث في أثناء ذلك أن مروان آخر خلفاء الدولة الأموية أتى مصر فارًا من وجه أبي العباس الذي إستعظم أمره ونزع جميع الولايات من يد الأمويين وإذ لم يبق لهم غير مصر بادر مروان بالحضور إليها ليستبقيها له ولكنه لم ينجح في مسعاه فإنه لما وصل إليها وجدها في هياج وإضطراب شديدين بسبب سوء إدارة الولاة وعمال الخراج لما كانوا يأتونه من الجور والظلم والإستبداد وكان قبط الوجه البحري سكان الجهة المعروفة بالبشمور (هي مديرية الدقهلية والمنزلة ودمياط) قاموا على عمال الخراج وقتلوهم فجرد عليهم الوالي عساكره فحاربوهم وإنتصروا عليهم دفعتين وكان القائد للبشموريين رجل قبطي منهم يسمى مينا بن بقيرة فلما رأى ذلك مروان حمل عليهم بعساكره

فقاوموهم وقاتلوهم ولعلمهم أنهم لا يستطيعون الثبات أمام مروان تركوا ميدان القتال وتحصنوا في بلادهم فلم يستطع أن يتعقبهم بسبب علو المياه التي حالت بينه وبينهم وإذ علم أن النصارى يرضخون لمشورة رئيسهم الديني ولا يخالفون له أمرًا إستدعى البطريرك وطلب منه أن ينصح البشموريين ويجذبهم إلى طاعته فكتب لهم رسالة يحثهم فيها على الخضوع والطاعة فلم يذعنوا وأصروا على المقاومة فظن مروان أنه كان يحرضهم سرًا على العصيان وعدم الخضوع فإستعمل معه العنف والشدة وقبض عليه وعلى كثير من الأساقفة والقسوس وسجنهم وهددهم بالقتل إذا إستمر البشموريون على المقاومة وعدم الرضوخ لحكمه فكتب البطريرك والأساقفة رسالة أخرى أبانوا فيها النتائج السيئة التي تعود على الأقباط عمومًا من جراء شق عصا الطاعة ونصحوهم بالتسليم والإمتثال لحكم الله فإن ذلك أولى بهم وحقنًا لدماء إخوانهم المهددين بالقتل إذا لم يذعنوا .

وقبل أن تظهر النتيجة وصلت جيوش أبي العباس إلى مصر وأخذت تشن الغارات وتستولي على البلاد فترك لهم مروا الوجه البحري وذهب إلى الوجه القبلي فصار عساكره ينهبون

ويسلبون أموال النصارى ويهدمون الديارات والكنائس وفيما هو هناك إعتصب أهل طحا [1] وتوقفوا عن دفع الخراج فأرسل إليهم أميرًا من أمرائه فقتل ونفي كثيرًا منهم وإستباح أموالهم وكان عدد سكان هذه المدينة أكثر من عشرين ألف نفس كلهم نصارى وهدم كنائسهم ولم يبق منها غير واحدة كانوا إلتزموا بثلاثة آلاف دينار في نظير بقائها فأعطوا ألفين وعجزوا عن الباقي فجعل ثلثها جامعًا وبعد ذلك حشد جيشًا من أهل الصعيد وأتى به إلى مصر فوجد عساكر أبي العباس على مقربة من الفسطاط فنهبها وأضرم فيها النار وعدى عنها إلى البر الغربي حيث تحصن فيه فلحقه عساكر أبي العباس وحاربوه وهزموه وقتلوه وبموته إنقرضت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية وإستولت على مصر .

ومما يستحق الذكر أن عساكر مروان بينما كانوا يعيثون في البلاد فسادًا وصلوا إلى دير راهبات فدخلوه ونهبوه ووجدوا بين من كن به من الراهبات راهبة حسنة الصورة جميلة المنظر

---

(١) ⲦⲞⲢϨⲞⲢ كانت مدينة عامرة ولما تخربت قامت في موضعها قرية حقيرة تسمى الآن طحا العمودين بمديرية المنيا .

فإختطفوها وأتو بها إلى قائدهم فلكى تخلص من يدهم بدون أن يدنس عرضها دبرت حيلة وذلك أنها لم تُظهر للقائد لا غضبًا ولا كراهة بل ميلاً وإرتياحًا وقالت له أن عندنا في الدير دهنًا إذا دهن به أحد عنقه فلا يؤثر فيه السيف وأخرجت من جيبها زجاجة وقالت هذا هو الدهن ولكي تكون على يقين مما أقوله هوذا أنا أدهن عنقي به وما عليك إلا أن تضربه بسيفك بكل قوتك فلا يمسني ضرر وبعد أن دهنت عنقها قالت له دونك والسيف فتقدم إليها وضربها بسيفه فأزال رأسها فإندهش وندم على ما فعل وعلم أنها لم ترد أن تخلف عهدها إذ نذرت بأن تعيش وتموت عذراء .

ومن المصائب التى حلت أيضًا بالقبط في هذا الزمن أن الروم الذين كانوا لايزالون يحاولون إسترجاع مصر وصلوا بمراكبهم إلى دمياط فجأة ونزلوا بها وقتلوا كثيرًا من سكانها وسكان البلاد المجاورة فكانت هذه مصيبة أخرى عليهم ولو لم تدركهم جنود العرب لأفنوهم عن آخرهم.

هذا ماكان عليه المصريون عمومًا والقبط خصوصًا في زمن الدولة العربية الأموية ومما مر يعلم القارىء أن المصائب

والرزايا التي حلت بالأمة القبطية والشدائد والإضطهادات التي ألمت بها وإن لم تكن من الوجهة الدينية فإنها أفنت خلقًا كثيرًا منهم. فالمغارم وزيادة الجزية حملت كثيرًا منهم على الإستسلام وكذلك القحط والوباء المتواليان ولاسيما الطاعون الذي تفشى في أيام عبد العزيز فإنه فتك فتكًا ذريعًا فتسبب عن كل هذه الأحوال نقص عظيم في عدد هذه الأمة التعيسة الحظ السيئة البخت.

وبإختلاط القبط بالعرب أخذت لغتهم تنحط شيئًا فشيئًا حتى لم يبق منها بتوالي الأيام إلا رسمها وإقتصروا على إستعمالها في الطقوس الكنائسية ولولا ذلك لمحي أثرها بالكلية وما الفضل إلا لأئمة الدين الذين أوهموا الناس أن المحافظة على لغتهم الأصلية ولو بغير المعاملة بها في الأحوال المعيشية من الواجبات الدينية.

أما حالتهم المدنية فكانت في إنحطاط مستمر بسبب النكبات التي كانت تطرأ عليه متوالية فضلاً عن تجريدهم من الإمتيازات التى منحهم إياها عمرو بن العاص حينما فتح بلادهم ولو دامت لهم هذه الإمتيازات والراحة لأمكنهم أن يعيدوا لأنفسهم ما فقدوه من المجد والفخار ولكن لم يمض على شروق شمس

هذه الراحة زمن حتى غربت فأصبحوا يندبون بختهم لما رأوه من العكس وخيبة الأمل .

ومن حسن الحظ أن علاقاتهم الشخصية مع أفراد المسلمين المتوطنين بينهم لم تكن غير مُرضية وأنا لم نر في التاريخ ما يدل على وجود تعصبات دينية بل ربما وجد بين المسلمين من أنصفهم وذب عنهم وقد إحتال الروم على أحد خلفاء هذه الدولة وتحصلوا على أمر منه بإعادة ما كان لهم من الكنائس بمصر قصداً في نزع إحدى الكنائس من يد الأقباط بدعوى أنها كانت في الأصل ملكًا لهم فأدى ما حصل بين الروم والقبط من النزاع إلى رفع المسألة لقاضى المسلمين للفصل فيها فلم يراع في الحكم غير الحق وأثبت أن الكنيسة ملكًا للقبط حقًا وحكم بعدم جواز نزعها من يدهم وإعطائها لمن لا حق لهم فيها .

القبط في عهد الدولة العباسية

لم تكن نوايا الخلفاء العباسيين لأقباط مصر غير حسنة إلا أن بُعد البلاد عن مركز الخلافة وعدم بقاء الولاة في مناصبهم

جعلهم يستبدون ويعملون في الناس كيفما شاؤوا كما كان يفعل الولاة في أيام الدولة الأموية وبعضهم لعلمه أن منصبه غير باق له لم يكن يهتم إلا بمصلحته الشخصية فلم يمض زمن حتى ساء الحال ثانية فتمرد قبط رشيد وسخا وغيرهما وجاهروا بالعصيان فأرسل إليهم الوالي عساكر فقاموا عليهم وقاتلوهم وهزموهم وردوهم على أعقابهم خاسرين ولما علم بهزيمة عسكره إشتد غضبه على النصارى وإضطهدهم وإلتجأ إلى ما كان يلتجىء إليه غيره من الولاة السالفين وهو هدم كنائسهم فعرض عليه نصارى الفسطاط أن يتركها ويعطوه في نظير ذلك خمسين ألف دينار فلم يرض وأصر على هدمها إذلالاً لهم وإنتقامًا من إخوانهم أقباط سخا ورشيد فهدمها ولما تولى آخر مكانه أذن لهم في بنائها وكان ذلك بمساعدة القاضي ومشورته بحجة أن بناءها أمن عمار البلاد فشكروه على ذلك.

ولعل هذا الوالي هو الذي أشار إليه الأب سويروس بن المقفع أسقف الأشمونين في كتاب تاريخ البطاركة (الذي عني بجمعه ونقله من اللغتين اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية الموجودة نسخته بمتحف لوندره) عند ذكر تاريخ حياة الأنبا مرقس

البطريرك الثامن والأربعين وهذا نص عبارته:

«فلما رأوا أى الأساقفة ووجوه الأقباط) مخاطبة الوالى له (أي البطريرك) وإهتمامه بأمر البيع قال أنبا خايال أسقف مصر الواجب أن نهتم بأمر الكنائس في هذا الوقت لما ظهر من محبة الوالي للنصارى ولما كان الغد عاد البطريرك إلى الوالي فسلم عليه وبجله وأكرمه ورفعه وأجلسه وخاطبه قائلاً (قد قلت لك أمس إني أقضي جميع حوائجك ولم تطلب مني حاجة والآن مهما يكن لك من حاجة فأذكرها فإنها مقضية عندي لمحبتي لك فقال له البطريرك بكلام لين الرب يحفظ أيامك ويزيد في رفعتك وسلطانك. تعلم أن عبدك لم يول على مال ولا خراج بل على الأنفس والبيع فأرغب إلى جلالتك أن لنا هنا كنائس قد هدم الظالم بعضها قبل وصولك إلى مصر فهدم الرب دياره وقطع حياته من على الأرض فإن رأى رأيك فيها أن يتقدم لنا بعمارتها لنصلي فيها وندعي لجلالتك فالأمر لك فأجاب سؤاله وأمر بعمارتها فبنيت جميع كنائس فسطاط مصر».

وعلى سبيل ذكر الشيء بالشيء نقول أن الأنبا سويروس

هذا كان موجوداً في الجيل الرابع للهجرة في عهد الدولة الفاطمية التي سيأتي ذكرها والكلام عليها وكان عاملاً فاضلاً وهو أول من إعتنى بجمع تاريخ البطاركة السالفين. جمعه من السجلات المكتوبة باللغتين القبطية واليونانية المحفوظة بدير أبي مقار ونقله إلى اللغة العربية وله جملة مؤلفات تدل على تمكنه من العلم والمعرفة وضعها باللغة العربية التي ترجم إليها أيضاً كثيراً من المؤلفات القبطية واليونانية لفائدة إبناء جلدته الأقباط ولاسيما سكان الفسطاط والقاهرة الذين كانوا قد هجروا بالكلية لغتهم القبطية بسبب إشتغالهم بالدواوين كما سبقت الإشارة وقد عد القس إفرام السريانى [1] في أحد مؤلفاته المسمى (الخريدة النفيسة) إثنى عشر مؤلفًا لهذا الحبر الفاضل جميعها باللغة العربية غير ما لم يقف له على ذكر ولكن من سوء الحظ أننا نسمع عن هذه المؤلفات الثمينة ولم نرها وربما توجد كلها أو بعضها بكتبخانات أوروبا مع غيرها من الكتب القديمة التي إبتاعها سياح الإفرنج بأبخس الأثمان. ولا نقول إلا جزى الله البائع وناقد الثمن خيراً فإنهما حفظاها من التلف والتلاشي لو

(١) الآن أنبا إسيذورس أسقف دير البراموس.

بقيت عند من لا يعرف قيمتها وكم من مؤلفات جليلة وكتب نفيسة وآثار ثمينة توجد بمتاحف وكتبخانات أوروبا وكلها منقولة من عندنا ومع الأسف أن وجهاءنا ورؤساءنا وأفاضلنا وشبابنا يذكرون ذلك ويأسفون على فقد هذه الكنوز الثمينة من بين أيدينا ولم تستفزهم الغيرة بإستبقاء ما بقي منها في حوزتهم والمحافظة عليه والإنتفاع به ومن كان حائزاً على شيء من هذه المؤلفات لا يفرط فيه أبدًا أو إذا طلب منه ينكره وبعضهم يصرح بوجوده ولكن لا يسمح بخروجه من سجنه المؤبد ظنًا منه أنه بخروجه من يده يُفقد مع أنه في الحقيقة مفقود لمنعه عن الغير وإختصاص الحائز عليه دون سواه بلا فائدة ولكن لمثل هؤلاء العذر لأنهم لايقدرون الفائدة العمومية حق قدرها .

ومن سوء الحظ أن هذا الوالي الذي رثى لحال القبط وأذن لهم ببناء ما هدم من كنائسهم وراعى جانبهم لم تطل مدة ولايته أكثر من سنة وخمسة أشهر وعزل وكان ذلك في خلافة هارون الرشيد وهكذا صارت تتقلب على مصر الولاة حتى بلغ عدد من ولى عليها من سنة ١٧٢ إلى سنة ١٧٧ هـ سبعة آخرهم يسمى إسحق بن سليمان الذي لما وصل إلى مصر زاد في

الخراج زيادة أجحفت بحق أهل البلاد فقام عليه سكان الحوف بالوجه البحري وحاربوه وقتل في هذه الواقعة خلق كثير.

وفي سنة ١٨٦ تولى إمارة مصر رجل يسمى الليث بن الفضل فبعث بمساحين يمسحون الأراضي وأمرهم أن ينتقصوا من القصبة أصابع فتظلم أهل الحوف إليه من ذلك فلم يسمع منهم فتجمهروا عربًا وأقباطًا وساروا إلى الفسطاط فخرج إليهم الليث بعسكره وبادرهم بالقتال فهزموه ولكنه تقوى وجمع ما بقي من عساكره وهجم عليهم وهزمهم وإقتفي أثرهم حتى أوصلهم إلى جهة تسمى عيفة وقتل من أهل الحوف خلقًا كثيرًا وقبض على ثمانين من زعمائهم وقطع رؤوسهم وأتى بها إلى الفسطاط وعرضها للناس فكان هذا سببًا لإضطرام نار الفتنة أكثر وإمتداد الثورة إلى أغلب جهات الوجه البحري وإستمرت الحال على هذا المنوال حتى تولى الخلافة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد في سنة ١٩٨ هـ - سنة ٨١٣ م. وفي أيامه قام جميع أهل الوجه البحري من أقباط وعرب وإمتنعوا عن دفع الخراج فكان بينهم وبين عساكر الولاة حروب هائلة قتل فيها من الفريقين خلق كثير وإقتدى أقباط الصعيد بأهل الوجه البحري فأصبحت البلاد جميعها في حالة فوضى. ولما بلغ المأمون خبر حال مصر وما

كان من تمرد اهلها وإجتماع كلمتهم على المخالفة ومعاداة الحكومة جزع وخاف عليها فبعث لأهل البلاد رسائل يدعوهم إلى الطاعة لأنه كان مشتغلاً بمحاربة الروم وأرسل هذه الرسائل عن يد مندوبين مخصصوين فلم يجد ذلك نفعًا . ولما إنتهى من حرب الروم وقصد العود إلى بغداد دار الخلافة عرج على مصر فوجدها في حالة يرثى لها والناس في ضنك شديد فسخط على الوالي وكان إسمه عيسى بن منصور وقال له «إن لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من سوء فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر عني حتى تفاقم الأمر وإشتد البلاء وإضطربت البلاد وأمر بتجريده من ملابسه فنزعت عنه وأخذه بثياب البياض على مرأى الجميع جزاءً له وعبرة لغيره» .

ويقول مؤرخو المسلمين أن المأمون لما كان في مصر ورأى إنتفاض أقباط الوجه البحري حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وسبي أطفالهم . أما مؤرخو القبط فيقولون أنه لما وصل المأمون إلى مصر ذهب إليه البطريرك وهو حينئذ الأب يوساب فقابله الخليفة بما يليق بمقامه وأكرمه وكلمه في أمر مخالفة أقباط

الوجه البحري وطلب إليه أن ينصحهم ويحذرهم بأن يكتب لهم منشوراً يدعوهم فيه إلى الطاعة حقنًا لدمائهم ووعده أن ينظر بنفسه في راحتهم وفيما يشكون منه فلبى البطريك طلبه وكتب المنشور إمتثالاً لأمره وأرسله فأطاع الناس وسلموا إلا أهل البشمور[1] فلم يقبلوا النصيحة وأبوا إلا المقاومة بدون أن يتبصروا في العواقب فلما بلغ المأمون هذا الخبر حمل عليهم بعساكره فشتت شملهم وفرق جمعهم ودخل بلادهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأطفالهم وسلب أموالهم وهدم كنائسهم وبالجملة لم يبرح تلك الجهة حتى خرب منازلهم وجعل بلادهم العامرة أطلالاً بالية ولو قبلوا النصيحة لنالوا من لدنه خيراً ونعمة وراحة لكنهم جلبوا على أنفسهم مصيبةً لم يبرأوا منها ومن ثم ذل القبط ولم يتجرأوا على المقاومة.

ولما خمدت نار الفتنة وهدأت الأحوال شرع المأمون في تطييب خواطر الناس فصار يطوف البلاد وأخذ يتفقد أحوال الرعيات بنفسه لتسكين جأشهم وقيل أنه في أثناء تجوله في البلاد لهذه الغاية مر بضيعة تسمى طاء النمل فلم يدخلها لحقارتها

(١) بمديرية الدقهلية.

ولما تجاوزها خرجت إليه عجوز قبطية تسمى ماريا صاحبة القرية وأخذت تصيح على المأمون مستغيثة فظنها متظلمة فوقف لها وسأل عما تريد فقالت يا أمير المؤمنين نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى والقبط تعيرنى بذلك فأتوسل إليك أن تشرفني بحلولك في ضيعتي ليكون لي ولعقبي الشرف ولا تشمت بي الأعداء فأجاب المأمون طلبها وثنى عنان فرسه إلى قريتها ولما نزل بها جاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله كم يحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع وغير ذلك مما جرت به عادته فأحضره إليه وكان مع المأمون أخوه المعتصم وإبنه العباس فقدمت له ولجميع من بمعيته من فاخر الطعام شيئاً كثيراً حتى إستعظم ذلك فلما أصبح الصباح وقد عزم المأمون على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف في يد كل وصيفة طبق فلما رآها المأمون من بُعد قال لمن معه قد جاءتكم القبطية بهدية ريفية فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب فإستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا فقال لها إن في بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك فرُدي مالك بارك الله

فيك فلم ترض وألحت عليه بقبول المال فلم يسعه إلا إجابة طلبها ثم سألها من أين لك كل هذا فأخذت قطعة من الأرض وقالت يا أمير المؤمنين هذا وأشارت إلى الذهب من هذا وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك ياأمير المؤمنين وعندي من هذا شيء كثير فأمر أن يؤخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأقطعها من قريتها مائتي فدان بغير خراج وإنصرف متعجبًا من كبر مروءتها وسعة حالها .

ومكث المأمون في مصر نحو شهرين ولم يبرحها حتى رتب حكومتها ونظم إدارتها ونظر في راحة أهلها فسامحهم في الأموال التي كانت باقية عليهم ولما عاد إلى بغداد بلغه أن الدواوين سارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات في الأراضى ونزعها من يد من كابد مشقات وتحمل نفقات جسيمة في إصلاحها وتسليمها لم يدفع الزيادة من غير كلفة ولا تعب فأصدر أوامره بعدم قبول هذه الزيادات ما دام يكون الناس قائمين بدفع ما عليهم من الأموال .

ولما كان المأمون بمصر أعطى البطريرك وهو الأب يوساب السالف الذكر فرمانًا بخط يده بإقراره رئيسًا عامًا روحانيًا على

الأمة القبطية وأن له السلطة العامة على جميع كنائس مصر وخدامها . وحدث أنه حصل نزاع ومخاصمة بين البطريرك المذكور والأب مينا أسقف مصر لتعظمه وإستبداده وإستقلاله بالأعمال وتسييرها كيمفا شاء وأراد بغير معارض ولا مراجع إعتماداً على الفرمان الذي أعطاه له الخليفة فجذب الأسقف إليه بعض الأساقفة والأراخنة فتوافقوا على تنزيله ويؤخذ من قبول بعضهم أنه كان بينه وبينهم عداوة من قبل وذلك لأن بعض الأساقفة والأراخنة وفي مقدمتهم أسقف مصر كانوا يودون تقليد رجل من غير الطغمة الرهبانية من ذوى الثروة والوجاهة فلم يوافقهم الأساقفة الآخرون وباقي الشعب وبعد نزاع إستقر الرأي على رسامة الأب يوساب المذكور وقيل أن قاضي مصر طلب منه نقوداً فلم يجب طلبه فأثر هذا في القاضي وبقيت في نفسه حاجة من جهة البطريرك فلما علم بذلك أخصامه ساروا إلى القاضي ووعدوه بأن يعطوه ما يطلبه إذا ساعدهم على نوال مرغوبهم بعزله وتقليد من يريدون تقليده مكانه وقدموا له تقريراً في حقه يشتمل على جملة بنود مدعي أنه خالف في إجرائها

القانون فعقد القاضي مجلساً وإستدعى البطريرك وقال له بحضور أخصامه إن رؤساء أُمتك يشكون من سوء تصرفك ومخالفتك القوانين المرعية ولا يريدون أن تكون رئيساً عليهم فالأولى بك أن تستعفي وتتنازل عن منصبك إختياراً قبل أن تُكره فأجابه البطريرك بجواب يشف عن تعاظمه وتشامخه حقيقة قائلا إن رئاستي ليست من قبل هؤلاء بل من الله وإقرار الخليفة وتصديق أخيه المعتصم فإذا كان لهم عليّ شكوى فما عليهم إلا أن يرفعوها للخليفة الذي أقرني في مركزي ومنصبي وأنا مستعد لتفنيد أقوالهم وإدعاءاتهم وحينئذ أُوقع عليهم القصاص بما يستحقون بمقتضى القوانين وبما لي من السلطة التي يخولها لي الفرمان الذي بيدي. فلما سمع القاضي ذلك طلب منه أن يطلعه على الفرمان الذي يحتج به فأحضره فلم يقدر القاضي أن يحكم عليه بشيء وأخلى سبيله ولكنه لم يخلص من هذه الورطة حتى وقع في أشد منها وذلك أن أخصامه وشوا بحقه للقاضي أنه يبتاع شباناً من النوبيين والحبشان المسلمين ويكرههم على النصرانية ويعلمهم الديانة المسيحية ليستخدمهم كمرسلين في أفريقيا فهجم القاضي على الدار البطريركية فوجد الشبان كما قالوا ولما سُئل البطريرك عن هذه الجراءة قال أنهم مبعوثون له

من عند ملوك النوبة ليتعلموا تحت رعايته قواعد الإيمان المسيحي فلم يسمع منه هذا القول وأخذ الشبان بالرغم عنه ونفاهم إلى بلاد المسلمين وعاش البطريرك كل أيام حياته في نزاع بسبب ما كان بينه وبين الأساقفة ووجهاء الأمة من المخاصمة حتى مات.

وتولى على خراج مصر رجل يسمى إبن المدبر[1] فزاد الضرائب على النصارى وأحصى الرهبان والقسوس ووضع الجزية عليهم بعد أن كانت رُفعت عنهم وألزم البطريرك بدفع ما فرض عليهم أكثر من ستة آلاف دينار في السنة فإضطر البطريرك أن يفرض عوائد على الأساقفة وأفراد الناس ليتمكن من دفع الغرامات فكان الناس يدفعون ضرائب للحكومة وضرائب للأساقفة وضرائب للبطريكخانة فحصلت لهم مضايقات شديدة فآثر كثير منهم الإسلام تخلصاً من هذه الشدائد.

وفي هذه الأثناء قام أهل بغداد على الخليفة وخلعوه وولوا إبن عمه المعتز بالله مكانه فتشاور القبط فيما بينهم عما يفعلونه للتخلص من الضرائب والمغارم التي فرضها عليهم إبن المدبر

(١) كان ظالمًا غشومًا لا يطابق إسمه مسماه.

فإستقر الرأى على تعيين إثنين منهم ليتوجها إلى مدينة بغداد ويعرضا على المعتز ما حل بأهل البلاد من الشدائد والضيقات وما كان عليه القبط من سوء الحال بسبب مظالم إبن المدبر وإنتخبوا لهذا الغرض إثنين من كبار الأمة غير المتوظفين في الديوان أحدهما يسمى ساويرس والثاني إبراهيم وأصحبهما البطريرك بكتاب منه للخليفة أبان فيه مظالم العمال وإشتدادهم على النصارى وهضم جانبهم ومخالفتهم العهد بزيادة الجزية وربطها على الرهبان والقسوس وسائر خدمة الدين بدون إستثناء وربط الأموال على أوقاف الكنائس والديارات ولدى وصولهما إلى بغداد قدما للخليفة كتاب البطريرك وشرحا له ما يقاسيه الأقباط من ثقل نير الحكام والولاة وتوسلا إليه أن يرثي لحال رعاياه ويرمقهم بعين مراحمه فأجاب سؤلهما وسلمهما أمراً بمعافاة الرهبان وسائر خدمة الدين من الجزية وتخفيفها عن أفراد أهل الذمة بما لا يزيد عما صولحوا عليه ومعاملتهم بمقتضى العهد الذي بيدهم ورفع الأموال عن أوقاف الكنائس والديارات وعدم التعرض لهم في عوائدهم وطقوسهم الدينية ولما إستلم هذا الأمر عادا إلى مصر وسلماه للوالي فلم يجرأ على تأخير تنفيذه ولكن

لم يمض زمن حتى أجبر المعتز على التنازل عن الخلافة وخلفه المهتدي فتغيرت الاحوال. ولما شعر أحد المندوبين وهو المسمى إبراهيم بتغير الأحوال لتغيير الخلفاء ونبذوا الوالي وعماله وأن أمر الخليفة المعزول ظهريًا أخذ على عهدته أن يعود ثانيًا إلى بغداد وكان قد إتخذ له في رحلته الأولى أصدقاء من المقربين وأصحاب الكلمة النافذة في الديوان وبواسطتهم تحصل على أمر من الخليفة المهتدي بتأييد الأمر الذي أصدره الخليفة السابق والعمل بمقتضاه فأخذه وعاد إلى مصر فرحًا مسرورًا فهنأه إخوانه بهذا الفوز العظيم وحسبوا ذلك فضلاً منه وخدمة جليلة لإبناء بلدته فعظمت منزلته عندهم.

وهكذا إرتاح الأقباط قليلاً من الزمن فإنقطعت عنهم معاكسة الولاة ومضايقتهم لهم وكفوا عن إجراء ما إعتادوا عليه من إستنزاف أموالهم بإلزامهم تارة بدفع غرامات وأخرى بزيادة الجزية إلى حد يتعذر عليهم فيه دفعها وإلقاء القبض في بعض الأحيان على بطريركهم وإعتقاله وعدم إخلاء سبيله إلا بدفع مبالغ طائلة وإذ لم يكن لديه ما يفي بالمطلوب يضطر وجهاء وأفراد الأمة بتوزيعها على أنفسهم ودفعها حفظًا لكرامة رئيسهم

وعدم إهانته. وقرأت في بعض التواريخ الإفرنجية أنه حكم مرة بضرب أحد البطاركة مائتا جلدة أمام بطريكخانته على مرأى الناس فبذل الأقباط للوالي مبالغ وافرة حتى لايهان رئيسهم هذه الإهانة الشنيعة ولكنني لم أعثر على ذكر هذه الحادثة في تواريخ الأقباط أو المسلمين التي وصلت إليها يدي.

وهذه الراحة وإن لم تطل مدتها لم يهنأ بها الأقباط ولا سيما سكان العاصمة والإسكندرية لأن عدو الخير وسوس لبعض الإكليروس أن يوقعوا أئمتهم في شرك إثارة الفتن ضدهم وكان أغلب هذه الفتن تصدر من بعض الرهبان لعدم موافقة الرؤساء على تقليدهم الوظائف الدينية العالية إما لعدم لياقتهم رغمًا عن المبالغ التي كانوا يعدونهم بنقدها لو أُجيبوا لطلباتهم أو لغير ذلك. فمن ذلك أن أحد الرهبان طلب من البطريرك أن يعينه أسقفًا وتعهد له بدفع مبلغ إذا نال مأربه فلم يجب طلبه إما لعدم لياقته أو لعدم رضاءه البطريرك بتدنيس ذمته وتلويثها لمنح مثل هذه الوظيفة بثمن سواء كان الطالب أهلاً أو غير أهل لها فأراد الراهب أن ينتقم لنفسه فزور سندًا على البطريرك بمبلغ جسيم جدًا بإتفاقه مع راهب آخر بشهادة بعض شهود من

المسلمين لا يعرفون البطريرك ذاتيًا وذلك أن الراهب الآخر إدعى أنه هو البطريرك وأنه مُقر بأن المبلغ الذي في السند هو في ذمته حقيقة وعلى هذا الإقرار شهد الشهود وأخذ الراهب السند وقدمه للقاضي ليخلص له حقه من رئيسه. فلما شهد بذلك بعض كبار المستخدمين الأقباط الذين لهم دالة على القاضي سعوا في إظهار الحقيقة وبواسطتهم إتضح للقاضي أن هذا إفتراء وتزوير. وآخر إدعى على البطريرك أنه يعرف الكيمياء وعنده من الذهب والفضة ما لايحصى. وآخر عمل تقريراً وقدمه لمتولي الخراج وإدعى فيه أن للبطريرك أموالاً وثروة عظيمة لا حاجة له بها.

فأرسل العامل يحضره من الإسكندرية على غير صورة فمات في الطريق لأنه كان هرمًا ضئيلًا. وإدعى راهب آخر بما هو أعظم من هذا جميعه بقوله أن البطريرك إغتصب بعضاً من المسلمين وردهم عن الإسلام جبراً وجعلهم نصارى ثم صيرهم رهبانًا ولكي يؤكد للوالي صدق أقواله وصحة دعواه طلب منه أن يسير معه جنداً إلى أحد الديارات ليحضر منها من كان في الأصل مسلمًا ثم أكرهه البطريرك على النصرانية وصيره راهبًا ولما وصل إلى الدير أخذ يملق بعض رهبانه ليجذبهم إليه فلم

يوافقوه فأمر الجند بالقبض عليهم وأتوا بهم إلى الوالي فأقام الرهبان الأدلة القاطعة والبينات المثبتة أنهم مسيحيون أولاد مسيحيين فجازى الوالي الراهب بما يستحق وصرف الرهبان ليذهبوا إلى ديرهم. وحدث أن أحد البطاركة المسمى ميخائيل الثالث قطع أسقف سخا بالوجه البحري وعزله من منصبه لأمر يستوجب ذلك وولى آخر مكانه فلما يئس الأسقف المقطوع من عودته إلى منصبه وعرف أنه فقد مركزه لامحالة وأصبح ذليلاً مرذولاً قصد الإنتقام من البطريرك وكان الحاكم على مصر حينئذ أحمد بن طولون وكان على أهبة القيام إلى سوريا للحرب وفي إحتياج للأموال للصرف منها على الجيش ونفقات الحرب فلما علم بذلك الأسقف المعزول ذهب إليه وأخذ يهون الأمر عليه قائلاً أن بطريرك الأقباط عنده من الأموال والثروة ما يكفي لهذه النفقات وما هو أكثر منها وأن مثله لا يحتاج لغير القوت واللباس وأنه لا يتأخر عن المساعدة ببعض ما عنده لو طلب منه ذلك فإستدعى أحمد بن طولون البطريرك وقال له أنت تعلم أن مساعدتنا للخليفة بالرجال والأموال أمر واجب ولايخفي عليك الحروب القائمة علينا بسوريا وإستعدادنا للقيام بها وإحتياجنا

للنفقات وقد علمت أنك ذا ثروة وافرة ومثلك لا يحتاج لغير الطعام واللباس وقد إستدعيتك بالإكرام لتدفع لي عن طيب خاطر مالديك لنتساعد به فتحظى من الخليفة بالرضى ومنى بالمنة الجزيلة. فلما سمع البطريرك ما قاله أحمد بن طولون علم أن هذه مكيدة عملها له الأسقف المعزول وشركا نصبه له ليوقعه فيه فأراد أن يحتج ويدفع عن نفسه هذه التهمة الباطلة ويبن لأحمد بن طولون فسادها وحقيقة حال من إتهمه بها فلم يقبل منه إعتذارًا ولم يسمع كلامًا وقبض عليه وزجه في السجن وكان في الديوان كاتبان مقربان لأحمد أحدهما يسمى يوحنا والآخر إبراهيم وكلاهما ولدا موسى كاتب سر بن طولون فسعيا في تخليصه فلم يستطيع وكان لأحمد وزير يسمى أحمد الماردينى وكان في ديوانه كاتبان وهما يوحنا وإبنه مقاريوس فتوقعا عليه وطلبا إليه أن يكشف للحاكم حقيقة الأمر ويسعى في إنقاذ البطريرك من السجن فأجاب طلبهما وذهب بهما إلى إبن طولون وألح عليه أن يطلق سبيله فقبل منه على شرط أن كاتبيه يضمناه بأن يدفع عشرين ألف دينار تدفع على قسطين فكتب البطريرك على نفسه صكا بهذا المبلغ لكنه لم يدفع القسط الأول إلا بعد

العناء العظيم والإستقراض وبيع بعض أوقاف الكنيسة [1] وكانت جملة أبروشيات خالية فعين لها أساقفة وفرض على كل واحد منهم مبلغًا وافرًا ليتساعد به على دفع الغرامة المطلوبة منه فلم يستطيعوا وفاء جميع ما فرض عليهم وبعضهم رفض بالكلية وفيما هو متحير في أمره لايدرى ماذا يصنع حل ميعاد القسط الثانى وإذ لم يكن قادراً على دفعه رغمًا عن كل المساعى التى بذلها والمشتقات التى تحملها قبض عليه أحمد بن طولون وزجه في السجن ثانية وكان له تلميذ شماس يسمى إبن المنذر فلم يفارقه مدة السجن في المرة الأولى والثانية.

وبقى البطريرك في السجن إلى أن توفي أحمد بن طولون بعد قليل وتولى إبنه خمارويه مكانه فلم يستحسن ما صنعه أبوه برئيس أمة هي في الحقيقة أهل البلاد وعليها مدار عمرانها فإستدعى البطريرك إليه وطيب خاطره وسامحه بما كان باقيًا عليه فنال بذلك شكرجميع الأقباط.

---

[1] ومما باعه في هذه الحادثة كنيسة بالفسطاط (مصر القديمة) إبتاعها منه اليهود ولم تزل في حوزتهم الآن. وباعهم أيضا أرضا بالبساتين لدفن موتاهم بها .ي

وكان على أبروشية طحا أسقف يسمى الأب باخوم نال بعقله وتدبيره وحسن سيره وسيرته ثقة خمارويه الذي كان لا يرفض له طلبًا فنال القبط بواسطة هذا الأسقف راحة تامة ومزايا جمة وكذلك أحمد بن طولون وإن يكن عامل البطريرك بما لا يليق إلا أنه أراح المصريين كثيراً فرفع ما كان باقيًا عليهم من الضرائب الغير إعتيادية التى فرضها إبن المدبر وخفض الضرائب عن الأطيان فإنتفع الأقباط من ذلك كثيراً وإتسعت في أيامه الزراعة وإستقامت الأحوال وشيدت المبانى العالية والقصور الشاهقة وهو الذي أسس بمصر الجهة المعروفة الآن بطولون وبنى الجامع الشهير المسمى بإسمه الموجود أثره إلى الآن. وقيل أنه لما عزم على بنائه أراد أن يجعلها أعظم ما بني من الجوامع في مصر إلى ذاك الحين بأن يقيمه على ثلثمائة عمود من الرخام فقيل له أن مثل هذا لا يمكن الحصول عليه إلا إذا هدمت كنائس ومعابد النصارى فعدل عن رأيه حتى لا يحرموا من معابدهم ولكن بقي متردداً في هذا الأمر. وكان يوجد مهندس نصراني يسمى إبن كاتب الفرغانى عارف بفن الهندسة وصنعة البناء كان ألقاه أحمد بن طولون في السجن لتهمة بعد أن بنى له

مقياساً للنيل وبقي فيه مدة حتى نسيه بالمرة فلما بلغ المهندس ما كان من رغبة إبن طولون وتردده كتب إليه عريضة وهو في السجن بما يفيد إقتداره على إتمام مشروعه وإستعداده لتنفيذ مرغوبه بغير إحتياج لأكثر من عمودين يجعلهما في القبلة فلما قرأ العريضة تذكره وأمر بإطلاقه من السجن وإستحضره أمامه وخلع عليه وعهد إليه في بناء الجامع على الكيفية التي رسمها ووافق عليها ولكن لم يتم البناء حتى غدر به وقتله لسبب طفيف جداً . ومن بعد أحمد بن طولون وخمارويه إبنه أي من سنة ٢٧٠ إلى سنة ٣٢٣ هـ الموافقة سنة ٩٤٦م. لم يذكر التاريخ شيئاً عن الأقباط غير ما ذكرناه. وبعد موت خمارويه أخذت الدولة الطولونية في الإنحطاط فكانت مصر ميداناً للمنازعات والتقلبات والمخاصمات وإنتهى الأمر بإنقراض هذه الدولة التي لم تطل مدتها أكثر من مائة وخمسين سنة وقامت دولة غيرها تسمى الدولة الإخشيدية نسبة إلى محمد الإخشيد مؤسسها فحكمتها بإسم الدولة العباسية مدة أربع وثلاثين سنة من سنة ٣٢٣ إلى ٣٥٨هـ. (٩٣٤ إلى سنة ٩٦٨م) وعدد ملوكها خمسة أشهرهم محمد الإخشيد أصله من فرغانة بآسيا

الصغرى وإخشيد في لغة فرغانة معناه ملك الملوك ولقب بهذا اللقب لأن أصله من أولاد ملوكها الذين أخذوا أسرى ومدة حكمه إحدى عشر سنة وثلاثة شهور وكان حازمًا شجاعًا حسن التدبير إلا أن بعض مؤرخى المسيحيين ينسب إليه الجور لأنه كان يجمع منهم أموالاً يتساعد بها على الحروب ولكن أحد المؤرخين المعاصرين له قال أنه كان يرد إليهم ما يأخذه منهم.

وقبل أن نختم هذا الباب نذكر طرفًا عن حالة مصر المالية فنقول أنه لما فتحها عمرو بن العاص لم يَجْبِ منها أقل من إثنى عشر مليونًا من الدنانير في السنة ولم يكن الخليفة راضيًا على ذلك ولما تولى إمارتها عبد الله بن سعد جبى منها أربعة عشر مليونًا ولكن قد أخذ هذا القدر يتناقص شيئًا فشيئًا من سنة إلى أخرى حتى لم يجب منها في زمن الخلفاء العباسيين أكثر من ثلاثة ملايين ولما تولاها أحمد بن طولون جبى منها نحو أربعة ملايين بعد الذي أنفقه على إصلاح الجسور والقناطر وسبب هذا النقص الفاحش سوء حال البلاد وأهلها وتعطيل الزراعة وكساد التجارة بسبب الحروب والفتن الداخلية وسوء تدبير الولاة وشره متوليى الخراج وطمعهم في أموال الناس وقتل النفوس

لأدنى سبب حتى نقص عدد السكان نقصًا مبينًا وبعد أن كان عدد الذين كانوا يدفعون الجزية من القبط بحسب الإحصاء الذي صار في أيام عمرو بن العاص ثمانية ملايين نقص بعد ذلك إلى ستة فخمسة فأقل من ذلك.

وفي أثناء ذلك ظهرت ببلاد الغرب دولة إسلامية جديدة سميت بالدولة الفاطمية نسبة إلى فاطمة إبنة النبي الذين يدعون أنهم من سلالتها فأصبحت الدولة الإسلامية منقسمة إلى ثلاث دول على كل منها خليفة يدعى الأولوية بالخلافة وهو بنو أمية أو الأمويين في الأندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميون في قيروان. ولما مات محمد الأخشيد لم يقم بعده من أولاده من يحسن التدبير وكذلك الدولة العباسية أخذت تنحط وتتجرد من ولاياتها حتى لم يبق لها إلا بغداد وبعض ضواحيها ومصر فإنتهز أبو محمد عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين ضعف الدولة العباسية فرصة مناسبة لفتح مصر فبعث إليها بأربعين ألف مقاتل فلم ينجحوا وعادوا على أعقابهم خاسرين.

ولما مات أبو محمد عبيد الله وتولى الخلافة بعده أبو القاسم ولده جهز جيشًا وأرسله إلى مصر فإستولى على

الإسكندرية والفيوم وقسمًا من الوجه القبلى وبقيت في يدهم إلى أن تولى المعز لدين الله بعد موت أبي القاسم فجهز جيشا جرارًا وسيره إلى مصر بقيادة جوهر قائد جيوشه وهو مملوك رومى الأصل رباه المعز لدين الله وسماه بأبي الحسن فصار يتنقل في الوظائف والمراتب العالية إلى أن صار في رتبة وزير وتقلد قيادة الجيوش. فقام جوهر بجيشه قاصداً مصر فسار نحو الصعيد وإستحوز عليه بأكمله وإتفق أن العائلة الإخشيدية إنقسمت على نفسها فلما رأى رجال الدولة ذلك أخذوا يستنجدون بالفاطميين فبادر جوهر بالحضور إلى الوجه البحري ولما وصل إلى الجيزة أتاه الأمراء وأعيان الأهالي وصحبوه إلى الفسطاط فدخلها بموكب حافل في يوم الثلاثاء ١٢ رمضان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) وإستولى عليها بغير قتال فأصبحت جميع مصر بأسرها في قبضة يده.

ولما توطد قدم جوهر في مصر ورأى ما كانت عليه البلاد من العز والفخار لم يرد أن تكون الفسطاط عاصمة لمملكة سيده فعمد إلى بناء مدينة جديدة تكون عاصمة الديار المصرية ومقر الخلافة الفاطمية فإختط مدينة القاهرة وشرع في إستجلاب خواطر المصريين بأن خفض الضرائب وإهتم بفتح

الترع وإقامة الجسور وترميم القناطر فإتسع نطاق الزراعة وراجت التجارة ومال إليه الناس بكل قلوبهم. ولما أتم جوهر بناء القاهرة وشيد بها قصرين عظيمين أرسل للخليفة المعز لدين الله يعلمه بذلك فقام قاصداً إياها ليجعلها دار الخلافة وقاعدة مملكته حيث وصلها في اليوم الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ الموافقة سنة ٩٧٢م. ونزل في القصرين اللذين أعدهما له.

القبط في عهد الدولة الفاطمية

لما إستولى الفاطميون على مصر وإنتقل إليها المعز لدين الله وإستقر بها وجعلها دار الخلافة الفاطمية كما تقدم كان عدد القبط بها لا زال عظيمًا رغمًا عن المصائب والبلايا التي حلت بهم من وقت إلى آخر لا يقل عن خمسة ملايين وكانوا هم أهل البلاد وذويها والمسلطين فيها وبيدهم مقاليد الأمور وأعمال الدواوين والتاجرة والزراعة والصنائع على إختلاف أنواعها.

ولما تولى أحمد بن طولون على مصر وإستقل بها وصارت جميع الأعمال العسكرية والإدارية والمالية في يده غير نظام

حكومتها وسيرها على طريقة أحسن مما كانت عليه قبلاً فأول شيء أتاه ونال به ثقة المصريين عمومًا إلغاء الضرائب الغير إعتيادية التى ضربها عليهم إبن المدبر وكانت تسمى بالخراج الهلالي وهي ضرائب فرضها على جميع حاصلات ومصنوعات البلاد والأملاك وكان يحصلها مع الضرائب المربوطة على الأطيان الزراعية. ولما لم يأمن إبن المدبر على نفسه من إبن طولون وانسحب من مصر بأمر الخليفة لم يشأ إبن طولون تولية عمال مستقلين غيره من المسلمين على الخراج بل عين عمالاً مخصوصين من أهل البلاد تحت إدارته مباشرة وأناطهم بتحصيله فكانت هذه خطوة جديدة للأقباط خصوصًا بالنسبة لدخلوهم في الأعمال الإدارية بعد أن كادوا يحرمون منها والمصريين عمومًا لما في ذلك من راحة. وفرض أيضًا على هؤلاء العمال الإداريين ملاحظة إصلاح الجسور والقناطر وكل ما تعود منه راحة المزارعين وتوسيع نطاق الزراعة ولا يخفي على الناقد البصير ما في ذلك من الحكمة وحسن التدبير والسياسة لأن صاحب الدار أدرى بما فيها فنمى في أيامه الإيراد وتوفرت النقود في الخزينة أكثر من ذي قبل رغمًا عما رفعه من الضرائب الأخرى التي مع إلزام

الأهالي بها لم يتيسر للولاة الذين قبله تحصيل ما كان يحصله بدونهم لما كان يأتيه من العدل وحسن المعاملة وعدم الخروج عن جادة الصواب. ولما رأى الأهالي أنهم في إطمئنان على أنفسهم إستغلوا الأرض فتيسر لديهم الخراج وصاروا يدفعونه عن طيب خاطر بلا عناء ولا تعب وبالجملة فإن المصريين عمومًا لم يروا من بعد عمرو بن العاص أيامًا أحسن من أيام بن طولون والدولتين الفاطمية والأيوبية بصرف النظر عما أصابهم على يد الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء الفاطميين كما سنرى.

ولما طالت مدة راحة الأقباط نوعًا وتحسنت حالهم أخذوا يشيدون الإبنية العالية والدور الواسعة ولاسيما الديارات والكنائس فإنهم صرفوا كل جهدهم في عمارتها وتشييدها في جهات مختلفة خصوصًا في الجهات المطلقة الهواء وأوقفوا عليها الأوقاف الواسعة وأحاطوها بالبساتين النضرة حتى أن بعض الخلفاء كانوا يذهبون أحيانًا إلى تلك الديارات لترويح النفس والراحة من عناء الأشغال والتمتع بنضارة حدائقها والتعاطي مما بها من الخمر النقي العتيق حتى أن بعض أدباء وأفاضل المسلمين الذين كانوا موجودين في ذاك العصر وضعوا

لها كتبًا مخصوصة ضمنوها أوصافها وما كانت عليه وممن كتب عنها أبو الحسين علي بن محمد المعروف بالشابشتي أمين مكتبة العزيز بالله أحد خلفاء الدولة الفاطمية وأبو بكر محمد الخالدي وأبو عثمان سعد الخالدي وأبو الفرج الأصفهاني.

وكانت تقام بهذه الديارات أعياد في أيام معلومة من كل سنة فكان كبار وميسورو الأقباط وغيرهم يذهبون إليها أفواجًا ويقيمون بها أيامًا ويذبحون الذبائح ويولمون الولائم ويصرفون مدة إقامتهم بها في سرور وإنشراح كما هو جار إلى الآن في مولد الست دميانة وغيرها. وكان للمعز لدين الله وزير إسمه يعقوب بن كلس كان يهوديًا وأسلم فإستوزره وقربه إليه وكان بين رجال الحكومة أيضًا رجل قبطي يدعى قزمان بن مينا الملقب بأبي اليُمن. فلما رأى يعقوب بن كلس أن الخليفة العزيز بالله الذي تولى بعد المعز يميل إليه داخلته غيرة من جهة أبي اليمن وخشي أن يأتي وقت يعزله الخليفة من منصبه ويوليه مكانه وإتفق أن ولاية فلسطين التابعة لمصر حينئذ كانت خالية من حاكم بها والخليفة يفكر في من يصلح لتوليته فإنتهز يعقوب الوزير هذه فرصة مناسبة لإبعاده عن مصر وسعى في إقناع العزيز أنه لا

يصلح لها سوى أبي اليمن لما هو معهود فيه من الإستقامة وحسن السياسة والتدبير وطهارة الذمة فإستحسن الخليفة رأيه وولى أبا اليمن على فلسطين وسيره إليها فقام بإدارة أعمالها خير قيام. لكن حدث بعد ذلك أن رجلا يسمى هفتكين من بغداد طمع في غزو الشام فأغار عليها وإستولى على جزء عظيم منها ونهبها وهزم الجيوش المصرية وإنتصر عليها. فلما شعر بذلك أبو اليمن خشي أن يحل به ما حل بغيره فأخذ ما كان عنده من النقود وغيرها مما هو حق المملكة وكان يبلغ مقداره نحو مائتي ألف دينار وأخفاها في دير في جبل بعيد وكان قائد العساكر المصرية هو جوهر قائد الجيوش فإضطر هذا أن يعقد صلحًا مع هفتكين على شروط إتفقا عليها فلما علم يعقوب بن كلس بهذا الصلح جعله سببًا لبلوغ مآربة فأخذ يرمي أبا اليمن بكل كريهة وينسبه للخيانة ويحرض العزيز على قتله ثم إتفق أن العزيز قام بنفسه لمحاربة هفكتين فإنتصر عليه وهزمه فتقدم إليه أبو اليمن وأعلمه بما كان من أمره وأمر الأموال التي كانت بعهدته واحضرها من مخبأها وسلمها له فشكره العزيز على أمانته ورفع مقامه وأقره في وظيفته وعاش أبو اليمن بتولا حتى مات وكان ذا ثروة

عظيمة وقبل عودته إلى فلسطين في المرة الثانية أعطى معظم أمواله إلى البطريرك لينفق منها على الفقراء وأهل الخصاصة.
وكان بين كبار رجال حكومة الخليفة المعز لدين الله نصراني آخر يسمى عيسى بن بسطوروس لبث في خدمة الحكومة إلى أن مات العزيز وتولى الخلافة بعده إبنه المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله فعزله ثم قبض عليه وقتله.

وبينما كان القبط متمتعين بالراحة والرفاهية في ظل الدولة الفاطمية متقلدين المناصب الرفيعة ولهم الكلمة النافذة في دواوين الحكومة ناسين الأتعاب والمصائب التي كانت تتوالى عليهم بسبب طمع الولاة ومتولي الخراج حدث بينهم (أي الأقباط) شقاق داخلي شوش راحتهم وكدر صفاءهم نوعًا وكاد يفضي بهم إلى ما لاتحمد عواقبه وذلك أنهم كانوا قد ألفوا عادة التسري وإذ لم يجدوا من الأئمة من يعارضهم فيها أو ينكرها عليهم إما لعدم معرفة بعضهم بها وإشتغال البعض الآخر في أغلب الأحيان بجمع الغرامات الطائلة التي كان يضربها عليهم الحكام السالفون وتشاغلهم بذلك عن معرفة ما هو جار بين الشعب أو لإعتبارهم أنها ليست من المحرمات أو تساهلاً

منهم للتعويض عن النقص الذي حصل بسبب قتل البعض وإستسلام البعض أو غير ذلك من الأسباب التي أمسك المؤرخون عن ذكرها فصارت تمتد هذه العادة بينهم وتنتشر شيئًا فشيئًا حتى أصبحت شائعة عندهم ولما تولى الأب إفرام السرياني منصب البطريركية أنكر عليهم هذه العادة وطلب إليهم أن يقلعوا عنها وإذ كانت قد تأصلت فيهم وإعتادوا عليها وألفوها ومضى على إتباعهم إياها زمن طويل لم يسهل عليهم التنازل عنها مرة واحدة فلم يلق منهم سوى الإباء والمقاومة وعدم الرضوخ وكان من أعظم المقاومين له رجل مشهور بالغنى ونفوذ الكلمة يسمى أبا السرور فتهدده البطريرك بالقطع إذا لم يذعن لأمره ويقلع عن هذه العادة الذميمة وألا يكون حجر عثرة لإخوانه والذين على شاكلته فخشي أبو السرور سوء العاقبة لما ينجم عن إصراره من الفشل فتظاهر بالإمتثال وبعد قليل توفي البطريرك وقيل أن أبا السرور سبب موته لأنه دس له السم والله أعلم.

وكان يعقوب بن كلس الوزير عاملاً على خذل النصارى بتفهيم الخليفة أنهم ليسوا على شيء من الدين وإتفق أن الخليفة إستدعى البطريرك يومًا ما لحاجة الوزير بحضرته فلما ذهب

لهذا القصد أخذ معه العالم ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (الذي مر ذكره) فناقش الوزير الأسقف حتى إنجلت الحقيقة بالفوز على الوزير وإقتنع الخليفة بأن النصارى ليسوا على ما كان يفتري به عليهم الوزير.

وبعد الأب إفرام تولى البطريركية الأب فيلوثاؤس ومع أن هذا البطريرك لم يعارض الشعب في عادة التسري التي كان يستقبحها سلفه كان مبغوضاً من أمته لأنه لم يهتم بغير صالح شخصه ومما زادهم كراهة له أنه كان رجلاً شهوانيًا راخي العنان للشهوات الجسدية والملاذ العالمية فتقموا عليه وإعتزلوه حتى مات.

ومن الغريب أن عادة التسري التي إنقطعت الآن من بين الأقباط ولم يبق لها أثر لم تزل جارية إلى الآن عند الحبش الذين هم إخوانهم في العقيدة والمذهب فلا يبعد أن يكونوا نقلوا هذه العادة عنهم.

خلافة الحاكم بأمر الله

وما جرى للأقباط على يديه

ولما مات العزيز بالله أخلفه إبنه المنصور الملقب الحاكم بأمر

الله وإذ كان حديث السن لا يزيد عمره عن إحدى عشرة سنة كان الوصي عليه والقائم بتدبير المملكة برجوان الوزير كما أوصى بذلك العزيز بالله قبل موته وهو خصي أبيض تربى في دار العزيز وصار يتنقل في الوظائف والمناصب حتى بلغ درجة وزير بعد موت يعقوب بن كلس فكان هو الآمر الناهي لا ترد له كلمة ولا يخالف له أمر فإغتر بظواهر الأمور ولم يقرأ العواقب فتجاوز الحد في الإستبداد وإستخف بمولاه وتظاهر بعدم الإمتثال لأوامره فقتله وضبط جميع ممتلكاته فكانت شيئًا كثيراً . وكان لبرجوان كاتب نصراني يسمى فهد بن إبراهيم يعرفه الحاكم حق المعرفة لأنه كان يدخل إليه مع سيده برجوان ويقف بحضرة الخليفة ويعرض عليه الرقاع ويشرح له المسائل ويتلقى أوامره عن كل واحدة منها ويكتب ما يأمر به فيوقع عليه . ولما قتل برجوان دعا الحاكم بأمر الله فهد بن إبراهيم وسكن روعه وأمنه على حياته وقال له لا تخش شيئًا ومنحه لقب رئيس ومن ثم صار يسمى بالرئيس أبي العلاء فهد بن إبراهيم وصار يترقى في الوظائف والمناصب العالية حتى صار في رتبة وزير .

وقد أظهر الحاكم بأمر الله في أول أيامه ما دل على

حسن التدبير والسياسة والتصرف في الرعايا والإنصاف والكلف بتقدم العلوم والمعارف فأمر أن توقد القناديل والمصابيح على أبواب الدور والحوانيت في كل المحال والسكك فصار الناس يصلون الليل بالنهار من كثر الأنوار وتواتر البيع و الشراء والأخذ والعطاء فراجت الحال. وكثيراً ما كان يطوف البلد ليتفقد حال الرعية بنفسه ويزجر حاشيته إذا منعوا الناس عنه فكانوا يقتربون منه ويحدقون به ويكثرون من الدعاء إليه.

وأنشأ في القاهرة مكتبة سماها دار العلوم ودار الحكمة وزخرفها بأحسن النقوش والفرش الثمين وجلب إليها الكتب النفيسة من كل الجهات فكانت تغص بالجماهير من جميع أنواع طلبة العلم وكان يرى في مناظرة العلماء لذة عظيمة فكان يدعو إليه العلماء والأطباء والفقهاء كل فئة على حدتها ويجعلهم يتناظرون أمامه ويتحفهم بالصلات والعطايا. ولكن من سوء الحظ أنه بعد يسير أصيب بإختلال في عقله فتغيرت حالته وصار يخترع كل يوم أحكامًا غريبة يحمل الناس على العمل بها ثم يأمرهم بالكف عنها. فمن ذلك أنه نهى عن بيع وأكل الملوخيا والترمس والجرجير والسمك الذي لا قشر له وأمر بالتشديد في

ذلك والمبالغة في تأديب من يخالف أمره وعلم أن جماعة باعوا أشياء منها فأمر بضربهم بالسياط ضربًا مبرحًا ولم يكتف بذلك بل أمر بضرب أعناقهم. ونهى عن بيع الزبيب وهجم على بيوت التجار وغيرهم وجمع ما كان موجوداً منه وأحرقه بالنار ومنع بيع العنب وكان في الجيزة كروم كثيرة فأرسل إليها أعوانه فقطعوها وخربوها عن آخرها.

وتتبع العلماء وأماثل أهل دولته وأكابر الناس على إختلاف أجناسهم وقتل منهم عدداً عظيمًا بغير سبب أو علة. ومنع النساء عن الخروج في الطرق فمضى عليهن وهن محبوسات في البيوت سبع سنوات وسبعة أشهر. ومما زاد الحال تعاسة أنه في أثناء ذلك حل بالبلاد وباء وغلاء شديدان فمات من الناس كثير ومن نجا منهم من الموت أحاقت به البلايا والمصائب من كل الجهات ولم يخلصهم من يدها إلا الموت بعد أن حكم خمسًا وعشرين سنة رأوا فيها الأهوال وقيل أنه مات مقتولاً بدسيسة من أخته وقيل غير ذلك والله أعلم بالحقائق.

أما ما حل بالنصارى من جور هذا الجائر فإنه أول كل شيء قتل الرئيس أبي العلاء فهد بن إبراهيم وسبب ذلك أنه

كان لفهد مناظر يسمى على بن عمر بن العداس كان العزيز بالله (أبو الحاكم) قد ولاه الوساطة وهي رتبة الوزارة ثم عزل منها وتعين رئيسًا على ديوان يقال له ديوان الإستيفاء ولما مات العزيز وتولى الخلافة الحاكم بأمر الله قرب إليه فهد بن إبراهيم وسلم له كل شيء فإغتاظ من ذلك إبن العداس صاحب في الديوان يسمى أبا طاهر محمود النحوي كان مختصًا بالنظر في أعمال الشام فأوعز إبن العداس إلى أبي طاهر أن يبلغ الحاكم بأمر الله أن الناس يشكون من تظافر النصارى وغلبتهم على المملكة وتوازرهم وأن فهد بن إبراهيم هو الذي يقوي نفوسهم ويفوض أمر الأموال والدواوين إليهم وأنه آفة على المسلمين وعدة للنصارى وإذ كان في نفس إبي طاهر أيضًا حاجة من جهة فهد بن إبراهيم وافقه هذا الرأي وأخذ على عهدته تنفيذه.

وبينما كان الحاكم بأمر الله يطوف البلاد في إحدى الليالي ومعه أبو طاهر إنتهز الفرصة وبلغه ذلك وصار يرشق فهد بن إبراهيم بكل أنواع المثالب ولم يترك ذميمة إلا نسبها إليه فحمي غضب الحاكم على فهد وقال لأبي طاهر وما العمل فقال له إن كنت يا أمير المؤمنين تعزز الإسلام وتؤثر صالح مملكتك

فأرح العباد من فهد بن إبراهيم وإلا لا يتم من هذا شيء . فقال الحاكم لإبن العداس إمض وقل له يلقني هنا في الغد فلما كانت الليلة التالية ذهب إبن العداس إلى الحاكم ولما بقي بين يديه سأله عن حال فهد فصار يطعن في حقه بكل كريهة فصرفه وأمره بكتمان هذا السر . ولما كان الصباح ذهب فهد لمقابلة الحاكم كجارى عادته فلم يحظ منه بالإلتفات وحول وجهه عنه فإرتعدت فرائصه وتحير في أمره ولعبت به الأفكار والهواجس .

ولما علم أن إبن العداس كان عنده في الليلة الماضية تحقق أنه قد سعى به عنده وكان كل منهما يتهم الآخر بذلك فذهب فهد إلى دار قائد القواد حسين بن جوهر القائد فلقي هناك إبن العداس فقال له يا هذا كم تؤذيني وتقدح فيّ عند الخليفة فقال إبن العداس والله ما يقدح ولا يؤذينيي ويسعى بي عند الخليفة غيرك فقال فهد (ولم يكن يعلم المضمر له من الشر) سلط الله سيف الإمام الحاكم بأمر الله على من يؤذي صاحبه فينا ويسعى به فقال إبن العداس آمين اللهم عجل ذلك ولا تمهله فلم تمض أيام حتى قبض على فهد بن إبراهيم وضرب عنقه بعد أن إستمر في الرئاسة خمس سنوات وتسعة أشهر وإثنى عشر يومًا وكان

فطناً ماهراً حسن التدبير والسياسة قام بتدبير الرئاسة التي عهدت إليه أحسن قيام. ولما قتل إبن العداس مكانه فظن أن الجو قد صفا وخلا له وفيما هو يفكر في الإيقاع بباقي موظفي الديوان الأقباط حل به وبأبي طاهر ما حل بفهد بن إبراهيم فإن الأول لم يحسن معاملة الناس وإذ لم يكن عليه رقيب يراقبه ولا رادع يردعه كثر تجبره وعسفه ووصل خبر ذلك للحاكم فقبض عليه وقتله شر قتلة وقبض على إبن العداس وأحرقه بالنار فلم يمض عليه في الرئاسة بعد فهد بن إبراهيم الذي حسده وسعى بقتله أكثر من تسعة وعشرين يومًا وعلى الباغى تدور الدوائر.

وكان بين أقباط مصر رجل يسمى غبريال بن نجاح إشتهر بالعقل والإستقامة وحسن التدبير فلما قتل إبن العداس إستدعاه الحاكم بأمر الله وطلب منه أن يُسْلِم ليوليه الوزارة فتوسل إليه أن يمهله إلى الغد ولما خرج من عنده ذهب إلى داره ودعى إخوته النصارى وودعهم وحثهم على الثبات وإحتمال الشدائد والإضطهادات المقبلة. ولما كان الغد ذهب إلى الخليفة وطلب منه أن يقيله من هذا المنصب الحرج وأن يسمح له بالبقاء على دينه فأمر بضربه ألف سوط فمات.

وقتل عيسى بن نسطورس [1] الذي مر ذكره وكان أميناً على أموال الحكومة وإيراداتها ومصروفاتها في أيام العزيز بالله ولما تولى الحاكم بأمر الله أقره في ديوانه الخاص وخلع عليه.

ويظهر مما قاله المؤرخون أن عيسى هذا كان عاتيًا جباراً ومن أخباره أنه في سنة ٣٨٠ هـ، حدث حريق بصناعة المقس [2] فأكلت النار جميع الصناعة وإحترقت السفن الكبيرة بما فيها من العُدة والسلام وكان بالقرب من الصناعة جهة يقال لها دار ماتك يسكنها الروم النصارى فإتهمهم البحريون المسلمون بإلقاء النار عمداً وحملوا عليهم مع جماعة من العامة وقتلوا منهم أكثر من مائة رجل وألقوا جثثهم في الطرقات ونهبوا بيوتهم وأخذوا من بقي منهم وحبسوهم.

ولما حصلت هذه الحادثة كان الخليفة ببلبيس قاصداً السفر إلى الشام والقائم مقامه رجل يسمى يانس الذي لما وصله خبر الحادث بادر إلى الحضور إلى محل الواقعة ومعه عيسى بن

(١) وقيل مشطوروس ولعله بسطوروس. (٢) الصناعة هي المحل الذي كانت تنشأ فيه السفن الحربية وهو الذي يسمى الآن الترسانة. والمقس وموضعه الآن خارج باب البحر لأن النيل كان ممتداً إلى هناك ثم إنحسر عنه ولذا سميت تلك الجهه باب البحر.

نسطورس ومسعود الصقلي متولي الشرطة ولدى وصولهم أحضروا الروم المحبوسين وبسؤالهم إعترفوا بإلقاء النار فكتب عيسى بن نسطورس بذلك إلى العزيز بالله وذكر له في الكتاب خبر من قتل من الروم وما نهب منهم بما تبلغ قيمته تسعين ألف دينار فصدر إليه بتجديد السفن ورد ما نهب من الروم لجانب الحكومة فنودي في المدينة بذلك وإشتد الطلب على الناهبين إلا أن بعضهم أخفي ما كان عنده فقبض عليهم وقتل بعضهم وضرب بعضهم وذل الناس بعضهم على بعض فمنهم من ضرب حتى مات ومن ضرب عنقه ومن صلب وبقي معلقًا ليراه الناس ويأتوا بما عندهم مما نهبوه.

وفي أثناء ذلك مات العزيز بالله وهو سائر إلى الشام وقام بعده إبنه الحاكم بأمر الله بتنزيل الذين صلبهم إبن نسطورس وتسليمهم لأهلهم وأعطى لأهل كل مصلوب عشرة دنانير برسم كفنه ودفنه وخلع على عيسى بن نسطورس وأقره في ديوانه الخاص ثم قبض عليه بعد سبع سنوات وإعتقله وبعد إثنى عشر يومًا أمر بضرب عنقه وفيما هو ماض إلى القتل قال (كنت أحسب كل شيء إلا موت العزيز ولكن الله لا يظلم أحدًا فإني

أذكر أنه كان بين القوم المتهمين بنهب بيوت الروم شاب قُبض عليه بتهمة أنه لم يرد رد ما نهبه فأمرت بقتله وكانت أمه معه فصاحت ولطمت وجهها وأقسمت أنها وإبنها ما كانا في مصر ليلة النهب وإنما أتيا إليها بعد النهب بثلاثة أيام فلم أعتد بقولها فناشدتني الله تعالى أن أجعله من جملة الذين يقاصون بضرب السوط وأن يُعفي من القتل فلم ألتفت إليها وأمرت بضرب عنقه فقال إن كنت لابد قاتله فإجعله آخر من يقتل لأتمتع به ساعة فلم أسمع لها وأمرت به أن يكون أول من يضرب عنقه فأخذت من دم ولدها ولضخت وجهها وسبقتني إلى القصر وهي منبوشة الشعر ذاهلة العقل فلما أتيت قالت لي أقتلت ولدي كذلك يقتلك الله يا قاسي القلب ياعنيد يا جبار وصارت تسبني وتلعنني فأمرت بضربها فضربت حتى سقطت إلى الأرض مغشيًا عليها ثم كان من الأمر ما ترون مما أنا صائر إليه وفي هذا عبرة لم يعتبر.

وكان لعيسى بن نسطورس هذا ولد يسمى زرعة فإستخدمه الحاكم وولاه النظر والتوقيع والظاهر أنه هو وحده الذي نجا من يده. ولما رأى الحاكم بأمر الله أن المسلمين ساخطون

عليه إشتد على النصارى وزاد في إضطهادهم فألزمهم بلبس العمائم السوداء وتعليق صلبان خشب في أعناقهم وأن يكون طول الصليب ذراعًا وزنته خمسة أرطال وأن يكون مكشوفًا بحيث يراه الناس ومنعهم عن ركوب الخيل وأن يكون ركوبهم البغال والحمير وأمر بألا يستخدموا مسلمًا ولا يشتروا عبدًا ولا أَمَة وأمر بهدم كنائسهم بمصر والقاهرة وكتب إلى جميع الجهات بذلك وأباح للعامة نهبها وضبط أوقافها وأحباسها وكل مالها وقبض على القسوس وقتل منهم عددًا عظيمًا وهرب كثير منهم إلى الديارات البعيدة فتتبعهم وقتلهم وقبض على الأب زكريا البطريرك وألقاه للسباع وقيل أنها لم تؤذه [1] وأكره النصارى على

(١) ويقال إن إشتداد الحاكم على البطريرك بهذه الدرجة لم يكن من تلقاء نفسه بل بسبب تهمة إتهمه بها أحد الرهبان وذلك أن هذا الراهب رغب أن يكون أسقفًا وكان للبطريرك إبن أخ يسمى ميخائيل إلتمس منهُ مالاً على سبيل الرشوة ليسعى له عند البطريرك في نوال مرغوبة فلم يجب طلبه في الحال بل وعدهُ بالوفاء بعد تعيينه فعمل على معاكسته وما زال بالبطريرك حتى عين غيره فأضمر الراهب للبطريرك شرًا وكانت عادة البطاركة إلى هذا الزمن مكاتبة ملوك الحبشة والنوبة مباشرة فوشي الراهب للخليفة أن البطريرك =

الإسلام فأسلم منهم خلق كثير ثم عاد فأمر أن من يُرد منهم العودة إلى دينه فليعد وصرح لهم ببناء بعض الكنائس التي هدمت.

وبعد هذا كله أمر بأن يخرج جميع النصارى واليهود من مصر ويذهبوا إلى بلاد الروم فشق هذا الأمر عليهم ولاسيما الأقباط منهم لما كان بينهم وبين الروم من العداوة القديمة فتجمعوا وذهبوا إلى الحاكم وأخذوا معهم أولادهم وأطفالهم ونساءهم وتواقعوا عليه وصاروا يستعطفونه حتى عفا عنهم وسمح لهم بالبقاء في وطنهم. ومنعهم من الإحتفال بعيد الغطاس وكان من أعظم أيام

=يكاتب هؤلاء الملوك ويكشف لهم عن كل مايجري في البلاد وسوء معاملة النصارى خلافًا للعهود فغضب الخليفة وأمر بالقبض على البطريرك وإلقائه للسباع فلم يأته منها ضرر فنفاه في أحد الديارات البعيدة وأمره ألا يخرج منها أبدًا وأمر أن لا يكاتب البطاركة ملوك النوبة والحبشةمباشرةً ولا يقبلوا منهم مكاتبات إلا بعد عرضها على الخليفة ومعرفة ما فيها وكذلك طلب من هؤلاء الملوك أن تكون المكاتبات منهم وإليه مباشرةً وبقيت هذه الحالة إلى الآن فكان إذا أتى الخليفة أو السلطان كتاب يقتضى الرد يطلب من البطريرك أن يشرح له ما عليه نصارى مصر من الراحة والحرية في الدين وعدم التعرض لهم في عوائدهم ويوصيه خيرًا بالمسلمين الذين تحت رعايته.

المواسم عندهم وله شأن عظيم عند المصريين عمومًا فكانوا يخرجون كبيرهم وصغيرهم إلى النيل ويوقدون المشاعل والأنوار وينصبون الأسرة على ضفتيه ويحيون ليلهم في سرور وإنشراح وغناء ولهو وقصف حتى الصباح.

ومنعهم أيضًا من الإحتفال بيوم أحد الشعانين وكان من عادتهم الإحتفال به إحتفالاً شائقًا إذ يطوفون الشوارع والحارات بضجة عظيمة حاملين الشموع وسعف النخيل. وكثيرًا ما كان ينزل الخلفاء في عهد الدولة الفاطمية للتفرج على هذه الإحتفالات ولاسيما إحتفال ليلة عيد الغطاس ويوم النيروز وكان من رسوم هذه الدولة أن توزع العطايا والهدايا في هذه المواسم على أصحاب الدواوين وكبار الكتاب والموظفين على إختلاف درجاتهم وأديانهم كل بحسب ما هو مقرر له.

وكما أمر الحاكم بأن النصارى يعلقون صلبانًا في أعناقهم ألزم اليهود أيضًا بأن يعلق كل واحد منهم جرسًا في عنقه.

ومن جراء هذه الأحوال صار الناس يتخوفون من أقل الشيء وحدث أن الحاكم أمر بأن تعمل شونة فيما يلي الجبل المقطم وتملأ بالسنط والبوص والحلفاء فخامر قلوب الناس من

ذلك جزع شديد خصوصاً المتعلقين بخدمته وظنوا أن هذه الشونة إنما عملت لهم ثم قويت الإشاعات وتحدث الناس في الطرقات بأنها للكتاب وأصحاب الدواوين فإجتمع سائر كتاب الدواوين والمتصرفين من المسلمين والنصارى وذهبوا إلى حيث كان الخليفة الحاكم ومازالوا يقبلون الأرض من بعيد حتى وصلوا إلى القصر ووقفوا على بابه يدعون ويتضرعون وكتبوا عن جميعهم رقعة يطلبون فيها العفو عنهم ويسألون الخليفة ألا يقبل فيهم قول من يسعى بهم عنده لأن أصحاب الفتن وأهل الفساد كانوا قد كثروا وطمعوا في أموال الناس خصوصاً أصحاب الدواوين الذين كان الحاكم يقبل كل ما يقال في حقهم قضية مسلمة بغير بحث ولا تروٍ ولا تحقيق وسلموا هذه الرقعة إلى قائد القواد الحسين بن جوهر فأوصلها إليه وصار يلاطفه ويستعطفه ويطلب منه العفو عنهم حتى قبل منه وأجيبوا إلى ماسألوا وخرج إليهم القائد فأمرهم بالإنصراف والبكور في الغد لسماع قراءة أمر الخليفة بالعفو عنهم فإنصرفوا وحضروا في الغد فقرىء أمامهم سجل العفو وأعطيت نسخة منه للمسلمين ونسخة للنصارى ونسخة لليهود . ولكن لم يمض زمن حتى قبض الحاكم على الحسين بن جوهر قائد القواد وقتله هو وأولاده

وضبط تركته وإستولى عليها وهكذا كان يفعل بكل من يقتله من كبار الرجال ولم يراع ما كان لجوهر أبي الحسين من الأيادى البيضاء والخدم الجليلة التي خدم بها دولته في أيام جده المعز لدين الله بفتح مصر وغيرها وضمها إلى مملكة الفاطميين.

وقال بعضهم بينما كان الحاكم يطوف البلد مرة مر بحارة يسكنها اليهود فأمر بسدها عليهم حتى هلكوا جميعًا ومر بحمام أيضًا كان فيه نساء يغتسلن فأمر بسدها عليهن فبقين فيه حتى هلكن جميعًا كل هذا ولم يجسر أحد من رجال الدولة على الشفاعة في أحد لأنهم كانوا في كل وقت عرضة لغضبه يتوقعون من وقت لآخر الموت نظرًا لتقلبه وما هو فيه من إختلال الشعور وعدم الثبات.

قلنا في ما مر أن هذه البلايا التي مُني بها أهل مصر على يد هذا الخليفة الغشوم كانت مصحوبة بوباء وقحط وغلاء شديد غير أن الناس لم يحسبوا لهذه المصائب حسابًا ولم يهابوها بقدر ماكانوا يتوجعون من سوء معاملة هذا الطاغي الذي إعتبروه أنه أرسل لعذابهم في الدنيا ولذلك كانوا يحسدون

الذين يموتون بسببها ويُعدّونهم من السعداء ويفضلوا الموت بها على الحياة التى غايتها قطع الرقاب ويتمنون الموت مثلهم على الفراش بين أهلهم وذويهم.

وفي أواخر أيام الحاكم بأمر الله ظهر بمصر متمذهب يدعى درار ولفق له دينًا جديداً وهو المعروف الآن بمذهب الدروز فإرتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة وإفتتن بها جداً حتى أنه كان يصعد كل صباح إلى الجبل المقطم منفرداً ويدعي بأنه ينادي ربه كما كان يفعل موسى ومن ثم صار لا يعبأ بمسلم ولا بنصراني.

ويقول مؤرخو الأقباط أنه كان بين من أكرهوا على الإسلام راهب إسمه بيمين لما علم بإفتتان الحاكم بالمذهب الجديد إتفق هو وجماعة من الذين كانوا أكرهوا معه على الإسلام أن يطلبوا منه أن يأذن لهم بالعودة إلى دينهم فإنتظروه في طريق كان معتاداً أن يمر بها بذلك وأعطاهم مرسومًا بألا يتعرض لهم أحد ثم إتفق بعد ذلك أن الراهب بيمين تقرب من الخليفة وصارت له عليه دالة فسأله أن يصرح له ببناء دير يقيم فيه هو ومن معه من

جماعة الرهبان فقبل طلبه فبنى ديراً خارج مصر في طريق حلوان وهو باق للآن ويعرف بدير العريان وكان يسمى قبلا دير شهران [١] . وإذ كان الحاكم قد تغيرت حاله صار يتردد على هذا الدير ويصرف وقتًا طويلاً مع من به من الرهبان ويأكل ويشرب معهم ويناظرهم ويباحثهم فلما آنسوا منه إجابة الطلب خطر ببالهم أن يستحضروا البطريرك ويقدموه له عله ينال منه حظاً وكان قد مضت عليه تسع سنوات وهو مقيم في أحد الديارات بوادي هبيب فلما تمثل بين يديه مع بعض أساقفته نظر إليه الحاكم متعجباً لأنه كان قصير القامة نحيف الجسم وقال لبيمن الراهب أهذا كله رئيسكم الذي كما علمت تمتد سلطته إلى بلاد النوبة والحبش والخمس مدن ويخضع له ملوكها فلا يخالفون له أمراً . قال نعم هو هذا بعينه وهو قادر أن يقيم ويقعد هؤلاء الملوك ورعاياهم بكلمة واحدة منه . فعفي الحاكم عنه وأقره في مركزه وسلمه أمراً مؤذنًا بفتح الكنائس المغلقة وبناء التي أمر بهدمها وإعادة ما نهب منها ورد أوقافها إليها كما كانت .

---

(١) ϣⲁⲁⲣⲁⲛ إسم البلد التي كان بها الدير وكانت عامرة آهلة وقد خربت وتلاشت كغيرها وفي موضعها الآن قرية حقيرة تسمى المعصرة .

وبعد قليل أي في سنة ٤١١ هـ - سنة ١٠٢١ م. مات الحاكم بأمر الله وتولى الخلافة بعده إبنه علي أبو الحسن الملقب بالظاهر وأقام في الخلافة سبع عشرة سنة ولم يحصل للأقباط في أياماه من الحوادث ما يستحق الذكر سوى أنه أقرهم في وظائفهم ومنحهم حرية العبادة بغير معارضة وأباح لهم الإحتفاء بعوائدهم والإحتفال بأعيادهم ومواسمهم التي منعهم أبوه من إستعمالها قبلاً وصرح للناس بأكل ما كان نهى الحاكم عن أكله. وفي أيامه مات زكريا البطريك وكان عاقلاً وديعًا متواضعًا محبًا للسلام وإنتخبوا رجلاً غيره يسمى شنوده وكانت العادة أن الخليفة لا يصرح بتقليد البطريك إلا إذا أورد مبلغًا مقداره ستة آلاف دينار نقداً أو يكتب به صكًا ليدفعه في أجل معين فكانت هذه العادة سببًا في وقوع أغلب البطاركة السالفين في ورطة السيمونية التي كثيراً ما تسبب عنها نزاع بين الأمة والأئمة وكان بين الأقباط رجل مسموع الكلمة يسمى إبن بقر فسعى لدى الخليفة فأصدر أمراً برفع هذه الغرامة وأذن بتقليد شنوده بطريركًا إلا أنه لم يلبث أن أظهر من الدناءة ومحبة المال ما أوجب إعراض أهم إبناء أمته عنه ولاسيما إبن بقر لأنه نصحه فأهانه.

الخليفة المستنصر بالله

والحوادث التي حصلت في أيامه

وفي سنة ٤٢٧ هـ - سنة ١٠٣٦ م ٧٥٢ للشهداء توفي الظاهر وتولى إبنه المستنصر بالله مكانه لم يرتفع النيل سنينًا متوالية فتعطل الزرع وقلت المحصولات وكثر الغلاء حتى بلغ ثمن الأردب الواحد من القمح مبلغًا عظيمًا وإذ علم المستنصر بأن مصدر زيادة النيل من بلاد الحبش دعا إليه البطريرك وهو إذ ذاك الأب ميخائيل الملقب بالحبيس وبعثه إليها بهدية سنية برسم النجاشي ولدى وصوله إستقبله بإحتفال عظيم وسأله عن سبب قدومه فأعلمه بما حل بمصر وأهلها من الضنك والجوع بسبب نقص زيادة النيل وأنه أتى ليستعين به على إيجاد طريقة لمنع هذه الغوائل عن البلاد وأهلها وقدم له هدية المستنصر فأمر الملك فتح سد في إحدى الجهات التابعة لبلاد الحبش فجرت المياه منه إلى أرض مصر وزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع وإستمرت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت الأراضي فإرتفع الغلاء وفي أثناء وجوده بتلك الأصقاع بذل جهده في تمكين عُرى العلاقات

بين المستنصر وملك الأحباش فكانت هذه خدمة أخرى قام بتأديتها للخليفة غير الخدمة التي أرسله من أجلها فنال بذلك رضاه وممنونيته وأحسن إليه وبالغ في إكرامه.

وكان للمستنصر وزير ضعيف الرأي سيء التدبير يسمى محمد اليازورى كان شديد الكراهية للمسيحيين عمومًا وللأقباط خصوصًا لميل الخليفة إليهم فكان يترقب فرصة للإيقاع بهم. واتفق أن شخصًا يسمى عبد الوهاب أبا الحسين عين قاضيًا على الإسكندرية وكان يتوقع أن ينال شيئًا من الأقباط عن يد بطريركهم على سبيل العطية فلما لم يجد فائدة وعلم أن في نفس الوزير حاجة من جهتهم سعى بالبطريرك عنده مدعيًا عليه أنه ظلم أناسًا وإغتصب أموالهم وبنى بها قصرًا شامخًا وكنائس في ناحية يقال لها دمروا وأنه يحتقر الإسلام وإذ كان الوزير يترقب فرصة للإيقاع بالنصارى بنى على هذه التهمة العلالي وأرسل على الفور رجالاً من عنده وأمرهم أن يهدموا الكنائس التي بتلك الجهة وتعمد مضايقة النصارى الأقباط وعمل على معاكستهم فصار يثير خواطر المسلمين ويحرضهم على التحزب ضدهم ولكنه لم يجد منهم إلا الإعراض لأن الناس كانوا في

شاغل في مثل هذه الأحوال نظراً للضيق الذي كان مستولياً على البلاد بسبب الوباء والقحط . ولما لم يجد فائدة من هذه السياسة الخرقاء والتدابير العقيمة قبض على البطريرك وبعض أساقفة الوجه البحري وإعتقلهم وأرسلهم إلى القاهرة مدعياً عليهم بدعاو باطلة لا أصل لها . أما الخليفة فإنه رغماً عن تمويهات الوزير لم يجد عليهم ما يوجب هذه الإهانة فأخلى سبيلهم وطيب خاطرهم وصرفهم إلى مراكزهم فشق هذا على الوزير ولشدة غيظه أمر بقفل الكنائس المسيحية في القطر المصرى سواء كانت للأقباط أو للروم فثار مسيحيو القطر جميعاً وتجمهروا وكادت تكون فتنة لولا أن الخليفة تلافي الأمر وقبض على هذا الوزير المستبد ونفاه في جهة تانيس بأقصى الوجه البحري وبعد قليل قتله لأنه كان يهيج المسلمين عليه وينسب إليه أموراً كاذبة كإدعائه عليه أنه لم يراع جانب المسلمين ويعين النصارى عليهم وغير ذلك مما لا صحة له .

وحدث في خلال ذلك ظواهر جوية وتغيرات فلكية إذ ظهر في الأفق نجم ذو ذنب طويل جداً لم يسمع المصريون بظهور مثله وأعقبه كسوف تام للشمس إستمر أربع ساعات متوالية

فكان منظر السماء مهيبًا مريعًا وإشتد الظلام حتى كانت مشاهدة النجوم عيانًا ممكنة في النهار . وإلتجأت الطيور إلى أوكارها رهبة فتشاءم الناس خصوصًا المسيحيون من هذه الظواهر وتوقعوا حدوث حوادث مريعة بالبلاد وأهلها . وقد كان الأمر كذلك فإن حال الحكومة تغيرت وإختل النظام بسبب إنقسام العسكر فكثر تغير الوزراء وإستبدالهم بغيرهم من وقت إلى آخر حتى تقلب على الوزارة نحو خمسة وثلاثين وزيراً في مدة إثنتى عشرة سنة ولم تكن هذه التقلبات تزيد الأعمال إلا إرتباكًا والأحوال خبالاً والبلاد إختلالاً وصارت الشكاوى تقدم إلى الخليفة من الرعايا في حق رجال الدولة ومن رجال الدولة في حق الرعايا فإحتار في أمره ولم يمكنه معرفة مصدر القلاقل .

ثم إزداد نفوذ العامة على رجال الدولة فإذا أجمعوا على أمر أنفذوه فإزداد إضطراب الخليفة وكانت ترد إليه التقارير متناقضة فلا يعرف أيها أصح وأيها يتبع فسادت الفوضى وإختل النظام وإنتهى الأمر بوجود حزبين بين عسكر لدولة مضادين لبعضهما أحدهما حزب السودانيين والثانى حزب الأتراك .

وبما أن أم الخليفة كانت جارية سوداء إبتاعها الخليفة الظاهر من تاجر يهودي كانت تميل طبعًا إلى السودانيين أكثر من غيرهم وتحب الإستكثار منهم لأنهم أبناء جلدتها فكانت تبتاعهم من كل الجهات فكثر عددهم وتألف منهم جيش عظيم وزاد نفوذهم لميل أم الخليفة إليهم وكذلك الأتراك الذين كان يتنافس الخلفاء في شرائهم ليكونوا حرسًا خاصًا لهم أصبحوا على جانب عظيم من القوة والسطوة ونفوذ الكلمة إلا أنهم كانوا دون السودانيين في العدد . أما الناس فكانوا يعتبرونهم ويعززونهم لصباحة وجوهم ووجاهتهم وشجاعتهم وبسالتهم بخلاف السودانيين الذين لم يخشوا بَأسَهم إلا لشراسة أخلاقهم وسواد وجوههم وميل أم الخليفة إليهم .

وحدث في ذات يوم أن أحد العساكر الأتراك شرب كثيرًا من الخمر فقاده السكر إلى تهديد أحد العساكر السوادنيين فجرد عليه سيفه فلما رأى ذلك رفاقه هجموا على التركي وقتلوه فإغتاظ الأتراك وتجمهروا وإنقضوا على السوادنيين وجرت بينهم مقتلة عظيمة قتل فيها كثير من الفريقين ولكن كانت الغلبة للأتراك . ومن ذلك الحين صارت الضغائن والمخاصمات تتزايد

بين الحزبين يومًا بعد يوم وأم الخليفة تحرض السودانيين وتساعدهم سرًا على الإيقاع بالأتراك فجرت بينهم وقائع كثيرة في جهات متعددة كانت الغلبة فيهاعلى الدوام للأتراك وإنتهت الحال بهزيمة السودانيين وهلاك السواد الأعظم منهم. ومن بقي منهم تشتت في أنحاء البلاد فصاروا يعيثون فيها فساداً وينهبون ويسلبون وبعضهم آثر الرحيل إلى بلاده فخلا الجو للأتراك وإستفحل أمرهم ومما زاده إستفحالاً إنضمام بعض قبائل العربان إليهم ومشاركتهم لهم فإستهانوا بالخليفة وإستخفوا بقدره وزادوا مرتباتهم إلى أربعمائة ألف دينار في السنة بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألفاً فعجزت خزينة الحكومة عن تأدية هذه الزيادة الفاحشة فألزموا الخليفة ببيع ذخائره وكل مقتنياته ومجوهراته الثمينة فأخرجها إليهم وكانت شيئاً كثيراً فقوموها بأقل الأثمان وأخذوها وإقتسموها بينهم من أصل مرتباتهم فأصبح المستنصر فقيراً مهاناً لايملك من الملك غير الإسم. أما الرعية فكانت أتعس حالاً منه بالنسبة لهذه الإضطرابات والنهب والسلب وعدم وفاء النيل سنوات متعددة متتابعة فتعطلت الزراعة وإشتد الجوع والقحط والوباء فمات منها ألوف مؤلفة.

وكانت سوريا في ذاك الحين تابعة لمصر والوالي عليها رجل يسمى بدر الجمالي أصله مملوك أرمني لأمير يدعى جمال الدولة بن عمار فسمي بالجمالي على إسمه وقد أظهر من أول أمره ما دل على فطنته وقوة عزمه وثباته وحسن التدبير فصار يتنقل في الخدم ويتقلب في المناصب العالية إلى أن ولاه المستنصر إمارة سوريا فقام بها أحسن قيام. فلما إشتد البلاء بمصر ولم يطق الخليفة إحتمال كل هذا الذل من الأتراك لم ير سبيلاً للتخلص من شرهم أعظم من الإستعانة عليهم ببدر الجمالي والي سوريا الذي وإن يكن إستقل بها أثناء هذه الإضطرابات إلا أنه كان لايزال مخلصاً مطيعًا له. فكتب إليه يستدعيه إلى القدوم لمصر ليتولى تدبير مملكته فقبل طلب الخليفة على شرط أن يصرح له بأن يحضر معه من يريد ويختار من العساكر وإذا حضر فلا يبقي أحدًا من العساكر المصرية في خدمة الحكومة فأجابه الخليفة إلى ماطلب وعلى هذا الشرط والإتفاق قام بدر الجمالي من سوريا في شرذمة من رجال قد إختبر شجاعتهم وصداقتهم وبعد أربعين يومًا وصل إلى الديار المصرية وفي يوم الأربعاء٢٩ جمادي الأولى سنة ٤٦٧ هـ. دخل القاهرة مع أصحابه ولم يكن

عند الأمراء المصريين علم بسبب مجيئه فظنوا أنه أتى عاصيًا على المستنصر لينزع مصر من يده فأظهروا له الرغبة في محالفته. ولما إستقر بمصر وثبت قدمه فيها كان أول شيء وجه إلتفاته إليه هو إستئصال الأمراء الأتراك الذين تعدوا على كرامة الخليفة وتجاوزوا الحد في إذلالة فتحايل على رؤسائهم وقطع دابرهم عن آخرهم وإستحوز على أملاكهم وأموالهم فقويت شوكته وعظم أمره فلقبه الخليفة بأمير الجيوش وتتبع أهل الفساد في الوجهين القبلي والبحري فقتلهم وأفناهم وغنم أموالهم وإستعان بها على إصلاح حال البلاد التي فسدت بسببهم وأباح للفلاحين أن يزرعوا الأراضي المتروكة مدة ثلاث سنوات بلا مال وسهل سُبل التجارة وإشتغل العامة وصغار الناس في إقامة الإبنية العظيمة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة وأحاط مصر القديمة والقاهرة بأسوار منيعة وكان المتولي عمارتها يوحنا الراهب المهندس الرياضي القبطي. فكثرت أسباب المعايش وإرتاح الناس في أيامه راحة عظيمة لم تخطر لهم على بال. ودامت مدة حكمه على مصر عشرين سنة أتى في أثنائها بأعمال لا يتيسر لغيره عملها في جيل. وتوفي وله من العمر ثمانون سنة وبعد

وفاته ببضعة أيام توفي الخليفة المستنصر عن سبع وستين سنة وخمسة أشهر صرف منها ستين سنة وبضع شهور في منصب الخلافة.

وفي أيام بدر الجمالي أمير الجيوش أتت مصر عائلات كثيرة من الأرمن غير العساكر الذين كانوا في الجيش فرحب بهم الأقباط وعاشوا بينهم عيشة راضية وتوطنوا بالديار المصرية فسكنوا في جهات كثيرة منها وكانت أسباب معيشتهم التجارة والصناعة وإستمروا على هذا الحال مدة إلى أن تغيرت الأحوال بتغير الدولة الفاطمية وقطعت عساكرهم عن آخرهم فلم يروا في إقامتهم بمصر راحة ولا فائدة ترجى فتركوها وعادوا إلى بلادهم ولم يتخلف منهم إلا عدد قليل جداً لا يذكر.

أما الأقباط فكانت حالهم كغيرهم أثناء هذه المحن والمصائب المتراكمة فلم يخصوا بمصيبة مخصوصة بل أن البلايا والرزايا التي منيت بها البلاد عمت جميع السكان على السواء أقباطاً كانوا أو مسلمين حتى الروم واليهود. ولما هدأت الحال وزالت أسباب الخصام وساد الأمن وعاد النظام كلف بدر الجمالي الأقباط بتنظيم الدواوين وتشكيلها على هيئة جديدة وعهد إليهم ضبط الحسابات وتحصيل الأموال فنمت الإيرادات

وبلغ مقدار ما جبي في أيامه ضعفي ما كان يُجبى قبلاً. ولم يكن بدر الجمالي يجاهل للفوائد التي تعود على مصر من إمتداد التجارة إلى النوبة والحبش وأن هذا لا يتأتى إلا بمسالمة هاتين المملكتين وعقد المعاهدات معهما أولى من معاداتهما والطمع في الإستيلاء على بلادهما وشن الغارات في كل وقت على حدودهما ولا سيما النوبة. وحدث أنه كان على أسوان عامل يسمى أسعد الدولة كان يشن دائمًا الغارة على النوبة ويرجع عنها خاسراً فلزم السكوت وأمسك عن القتال على نية العود إليها في فرصة أخرى. وكان على النوبة ملك يسمى سلمون فلما إرتاح باله من هجمات أسعد الدولة وإغاراته على بلاده وهو يدفعه عنها تنازل عن المملكة لإبن أخته المدعو جورجى وآثر العزلة والإنفراد في واد ملازمًا للصلاة ومواظبًا على العبادة.

فلما علم بذلك أسعد الدولة أرسل بعضًا من رجاله ليقبضوا عليه فأدركوه في مغارة مجاورة لأحد الديرات البعيدة فأمسكوه وأتوا به إلى أسوان فأرسله أسعد الدولة إلى بدر الجمالي أمير الجيوش بالقاهرة مدعيًا أنه أُخذ أسيراً. أما أمير الجيوش فقابله بالترحيب وأكرمه وخصص له قصراً لإقامته به

وبقي به في مصر حتى توفي بعد ذلك بقليل ودُفن بالإكرام والتعظيم في دير الخندق المعروف الآن بدير أبي رويس خارج القاهرة. وفي أثناء إقامة سلمون الملك بمصر تحقق بالعيان ما كان بين القبط والنوبيين من الرابطة الدينية وتُبودلت الزيارات بينه وبين البطريرك ووجهاء القوم الذين بالغوا في تعظيمه وتبجيله وإكرامه فكان وجوده بينهم هذه المدة الوجيزة سببًا في تعزيز شأنهم وإعلاء مقامهم عند أكابر الدولة وعظمائها ولا سيما عند أمير الجيوش الذي لما علم بما بين الأقباط والنوبيين والأحباش من الجامعة الدينية والرابطة المذهبية وكان يحاول إبرام معاهدات مع ملوك هاتين الأمتين لتسهيل طرق التجارة وإمتدادها بين الديار المصرية وهاته البلاد كاشف وجهاء الأقباط وعقلاءهم بما كان يكنه في صدره وطلب منهم بذل السعي ومساعدته في تنفيذ مقاصده فلبوا طلبه وشرعوا في فتح باب المخابرات مع ملوك الحبش والنوبة بواسطة البطريرك فصارت المكاتبات تُتداول بينهم حتى حصل الإتفاق وتم الأمر على حسب مرغوب بدر الجمالي وما كان يبتغيه فشكرهم على ذلك وأثنى عليهم وأنعم على البطريرك بمال يستعين به على إصلاح الديارات و الكنائس

المتخربة. وتقلد كثير من الأقباط الوظائف العالية في دواوين الحكومة ولاسيما المتعلقة بالأعمال الحسابية فإنهم إستقلوا بها إستقلالاً تامًا وإمتازوا على غيرهم بوضع قواعد دقيقة وروابط مضبوطة لها فلم يتمكن غيرهم من تسييرها مثلهم وكانوا قد تمكنوا من معرفة اللغة العربية وألفوا فيها مؤلفات واسعة تشهد لهم بغزارة المادة وطول الباع ونقلوا إليها أيضاً جملة مؤلفات من اللغتين اليونانية والقبطية في مواضيع مختلفة فعرفت الدولة فضلهم وكفاءتهم وعدم إمكان الإستغناء عنهم فراعت جانبهم وقدرتهم حق قدرهم ومنحتهم الألقاب السامية مثل (الرئيس، وهبة الله ، والأمجد ، والأسعد ، والشيخ ، ونجيب الدولة ، وتاج الدولة ، وفخر الدولة) وغير ذلك من ألقاب الشرف والتمييز التي هي بمثابة الرتب في زمننا الحاضر. وكان بين العساكر الذين حضروا مع بدر الجمالي حسب إتفاقه مع الخليفة المستنصر كثير من الأرمن والسوريين النصارى إستمروا في خدمة الدولة مدة من الزمن. ومن محاسن أيام الدولة الفاطمية التي تذكر بالنسبة للأقباط أن معظم الصنائع وأجلها كانت بيدهم فكان منهم الصياغ والجوهريون والنجارون والحاكة والصباغون

والبناؤون والحدادون والمهندسون والنقاشون والشماعون وعاموا الورق والزجاج على إختلاف أنواعه وألوانه ولم تزل بقايا صنعتهم موجودة للآن في الديارات والكنائس القديمة بحارة زويلة وحارة الروم ومصر القديمة ولاسيما المصنوعات الخشبية وغيرها الموجودة بكنيسة المعلقة بمصر القديمة فإنها على جانب عظيم من الإتقان والإحكام تدل على تقدمهم في ذاك العصر في الصنائع والفنون ومنهم من إشتغل بفن الطب فنال منه حظا وافرًا ومن إشتغل بعلم المواقيت وألف فيه مؤلفات واسعة وصل إلينا بعضها .

ولما عهدت في زماننا الحاضر لصاحب الهمة العالية التي لا تنكر والأيادى البيضاء التي تشكر نخلة بك يوسف الباراتي نظارة كنيسة المعلقة التي هي أقدم كنائس الأقباط في القطر المصري وكانت قد تقوضت أركانها وتداعت إلى السقوط جدرانها بذل في إصلاحها همته وجعل إعادتها إلى بهجتها ورونقها القديم ديدنه ووالى البحث والتفتيش على جمع ما كان فيها من المصنوعات القديمة ولكن من الأسف لم يعثر إلا على القليل منها لأن معظمها لا بل أهمها بعضه نقله السياح الإفرنج إلى

بلادهم وبعضه أتلفه الإهمال وإلتهمته النار في تسوية أطعمة المؤتمنين على تلك الذخائر لعدم معرفتهم قيمتها فجمع ما وجده منها وثبته في موضعه كما كان وبناها بغير أن يحدث تغييراً في هيئتها الأصلية إلا ما ألجأته إليه الضرورة. ومما يمدح عليه أيضا حفظ ما وجده وعثر عليه من بقايا الكتب القديمة المكتوبة بخط اليد التي لا تخلو من الفائدة لو وجد بين الأمة من تدعوه الغيرة إلى طبعها ونشرها على العموم.

وكان يوجد بكنيسة المعلقة بمصر القديمة لوح كبير من خشب قديم عليه رسم المسيح يصنع العشاء السري مع تلاميذه وهو غاية في الإتقان ودقة الصناعة يدل على ما كان للأقباط في ذاك العصر من طول الباع في الصنائع وهذا اللوح يظهر أنه كان معمولاً ليكون حجابًا على هيكل.

ولما إحتل الإنكليز البلاد في سنة ١٨٨٢م عقب الثورة العرابية أشار أحد كبار ضباط الإنكليز إلى أحد أمراء الأقباط بتقديم هذا الحجاب البديع هدية من رجال الأمة لأعضاء مجلس نواب إنكلترا بمدينة لندن عاصمة المملكة الإنكليزية لكن بعض أعضاء المجلس الملي الذي كان موجوداً وقتئذ لم يستحسن هذا

الإقتراح ولما طرح هذا الأمر على الأعضاء للمداولة فيه وجد معارضة . ولم يكن القصد من هذه المعارضة المحافظة على هذا الأثر وعدم التفريط في آثارنا القديمة بل من قبيل مقاومة مبلغ الإقتراح كما دلت على ذلك قرائن الأحوال لأنه لم يخطر على بال المعارض أو غيره من المتظاهرين بالغيرة عمل ما من شأنه المحافظة على هذا الأثر العجيب لئلا تلعب به أيدى التلف أو يصيبه ما أصاب غيره من الضياع بل بقي متروكاً مدة مستعملاً كحاجز على إحدى فسحات الدير الذي كان به ولم نعلم إذا كان لايزال موجوداً أو لحقه مالحق غيره من الآثار الثمينة التي بيعت بأبخس الأثمان . وياحبذا لو أعار عقلاء الأمة هذه الآثار جانباً من الإلتفات وإهتموا بجمع ما بقي منها وأودعوه في قاعة مخصوصة كما عملت الحكومة بالآثار العربية ويتركون عوضهم على الله فيما فقد منها وما بيع بدون القيمة لعدم معرفة المؤتمنين عليها قيمته .

ومن أخبار داخلية الأمة القبطية في ذاك العصر أنه لما قبض الوزير اليازورى على البطريرك وبعض الأساقفة ولم يخلصهم من يده إلا الخليفة المستنصر كما تقدم القول آثر البطريرك وهو إذ

ذاك خريستوذولس أن ينقل كرسيه من الإسكندرية ويجعل مقره بمصر ليكون بعيداً عن حكام الوجه البحري وعن مضايقتهم له من جهة ولكثرة ما بينه وبين أرباب الحكومة من العلاقات من الجهة الأخرى وإختار الإقامة بكنيسة المعلقة بمصر القديمة التى كانت قبل هذا الوقت دار أسقفية مصر .

إنعقاد مجمع من جماعة الإكليروس وكبار الامة

بأمر أمير الجيوش بدر الجمالي

وكان بين كتاب الدولة رجل يسمى يوحنا بن الظالم إختار الأسقفية فسعي لدى البطريرك ومازال به حتى أجابه لطلبه وولاه أسقفية سخا [1] ولا نعلم عن هذا الرجل الذي كان يرجى منه أن يكون من أهل الفضل شيئاً غير حدوث نزاع بينه وبين البطريرك عقب إنتقاله إلى مصر . وضم الأسقف إليه بعضاً من الأساقفة وجمهوراً من الشعب وتحالفوا على عزل البطريرك لكن كان في بلاط

(1) cϦⲱⲟⲩ .

الخليفة رجل يسمى أبا زكريا يحيى بن مقاره وكان شيخًا عاقلاً فاضلاً مسموع الكلمة مهابًا بالنسبة لعقله وشيخوخته فتلافى الأمر بأن تداخل بينهم وصالح البطريرك مع أسقف سخا وطيب خاطر الباقين وصرفهم إلى مراكزهم وبهذا إنتهت الفتنة على أحسن حال ولكن بقى هذا الأسقف مصراً على تشويش راحة الأمة يترقب فرصة لإظهار ما كان يخفيه في صدره فلما توفي البطريرك وتقلد الرئاسة آخر يسمى كيرلس إتحد يوحنا بن الظالم هذا مع أربعة أساقفة آخرين وهم مرقس أسقف سمنود أخو إبن الظالم ويوأنس أسقف دميرة وخائيل أسقف بوصير ومقاره أسقف القيس ومعهم أبو غالب بيمين بن تيدر بن مرقوره القبطي أحد أعيان مصر المشهورين وتواطئوا على عزل البطريرك فكتبوا تقريراً بالطعن في حقه مدعين عليه بدعاو توجب عزله وقدموه لبدر الجمالي أمير الجيوش الذي لما قرأه وعلم ما فيه قال أن ليس من شأنه أن يحكم في أمر مثل هذا من تلقاء نفسه أو بمجرد أقوالهم فأمر بعقد مجمع من جميع أساقفة الوجهين القبلي والبحري وكبار الأمة ليبحثوا في الأوجه المقترف بها على البطريرك فإذا كانت صحيحة وحكم المجمع على البطريرك بالعزل فلا يسعه

حينئذ إلا الرضوخ لما يقررونه وعليه إجتمع في مصر أربعون أسقفاً وهم أساقفة مصر والجيزة والخندق (١) وسخا وسمنود وتانيس ودمياط (٢) وتلبانة ودميرة (٣) وأبي صيرة (٤) وسهرجت (٥) ومنوف (٦) وطنطا (٧) ونوسا والبرس (٨) ونبروه وصا (٩) وبنها وخربتا (١٠) ودمنهور (١١) ومصيل (١٢) وسرسنا (١٣) ورشيد (١٤) وإتريب (١٥) وبلبيس وإطفيح (١٦) وإهناس (١٧) وطمويه (١٨) والفيوم (١٩) والقيس والبهنسا (٢٠) وطحا والأشمونين (٢١) وأنصنا (٢٢) وقسقام (٢٣) وأسيوط (٢٤) وشطب (٢٥) وقاو (٢٦) وإخميم (٢٧) (والبلينا) (٢٨) وهو والقُصير (٢٩) أرمنت (٣٠) وإسنا (٣١) وأسوان (٣٢) ودندرا (٣٣) وقوص (٣٤) غير الذين تخلفوا ولم يحضروا لتقدمهم في السن وهم أسقف قطور وأسقف سنجار وأسقف دقميرة وأسقف الواحات وغيرهم. ومن هذا يعلم أن عدد الأقباط في

---

(١) Ϣⲓϣⲁⲧⲉ. (٢) Ⲧⲁⲙⲓⲁⲑⲏ. (٣) Ϯⲙⲁϩⲓ. (٤) Ⲡⲟⲩⲥⲓⲣⲓ.
(٥) Ⲡⲁⲟⲱⲓⲡ. (٦) Ϣⲁⲛⲟⲩϥ. (٧) Ⲧⲁⲗⲁⲛⲁⲟⲩ. (٨) Ⲛⲁⲣⲉⲁⲗⲟⲩⲥ.
(٩) Ⲭⲁⲓⲡ. (١٠) Ⲁⲣⲃⲁⲟ. (١١) Ϯⲙⲓⲛϩⲱⲣ. (١٢) Ϣⲉⲗⲉⲗ.
(١٣) Ϯⲁⲡⲥⲏⲛ. (١٤) Ⲣⲁϣⲓⲧ. (١٥) Ⲁⲟⲣⲏⲃⲓ. (١٦) Ⲡⲉⲧⲡⲉϩ.
(١٧) Ϩⲛⲏⲥ. (١٨) Ⲧⲁⲙⲏⲱⲟⲩ. (١٩) Ⲫⲓⲱⲙ. (٢٠) Ⲡⲉⲙⲭⲥ.
(٢١) Ϣⲙⲟⲛⲩⲡⲃ. (٢٢) Ⲕⲱⲥⲕⲁⲙ. (٢٣) Ⲁⲛⲧⲛⲱⲟⲩ.
(٢٤) Ⲥⲓⲱⲟⲩⲧⲓ. (٢٥) Ϣⲱⲧⲡ. (٢٦) Ⲉⲡⲃⲱⲟⲩ. (٢٧) Ϣⲙⲓⲏⲛ.
(٢٨) Ⲡⲟⲩⲡⲁⲛⲓ. (٢٩) Ⲡⲁⲡⲉ. (٣٠) Ⲉⲣⲙⲱⲛⲧ. (٣١) Ⲥⲛⲏ.
(٣٢) Ⲁⲧⲱⲛ. (٣٣) Ⲡⲓⲧⲉⲛⲧⲱⲣⲓ. (٣٤) Ⲭⲱⲥⲃⲁⲣⲃⲓⲣ.

ذاك الوقت كان لم يزل عظيمًا جدًا .
ولما حضروا إنعقد المجمع كما أشار بدر الجمالي وحضر هو أيضًا بينهم ووبخهم على عدم مراعاتهم واجباتهم وحثّهم على الإئتلاف وإطاعة رئيسهم ونظر الأساقفة في القضايا المقامة على البطريرك فظهر لهم أنها لم تُبن إلا على منافسات شخصية فحكموا ببراءة البطريرك مما نُسب إليه وصالحوه مع الأساقفة أخصامه وهكذا إنفض المجمع وعاد الأساقفة إلي مراكزهم.
ولكن محبة الأمور العالمية والجهل كانا قد سريا في جسم الإكليروس وتمكنا منه فكثر النزاع بين البطاركة والأساقفة تارة وبين الأساقفة والبطاركة والشعب تارة أخرى وزاد الشغب ونفور الأمة من الإكليروس لسوء تصرفهم وإهمالهم واجباتهم.
وكأنَّ الأمة إنقسمت في ذاك الحين على ذاتها فكان هذا الإنقسام عاملاً آخر على تمهيد طرق دمارها .

ظهور مصلحين

وحدث أنه ظهر بين رجال الإكليروس قس إسمه أبو ياسر بن القسطال كان عالمًا فاضلاً كثير التأمل ولاسيما في حال أمته

ومقابلة ماضيها بحاضرها فأدرك بدقة بحثه وتأملاته أن إخوانه الأقباط في حاجة كبرى إلى إدخال بعض إصلاحات في طقوسهم وعوائدهم. ونظر إلى المخاصمات والمنازعات التي كانت تحصل بين الرجل وزوجته بعد الزواج وما ينجم عنها من تكدير صفاء العائلات ومنازعة بعض أئمة الناس بخصوص التسري الذي كان شائعًا في ذاك الحين بين الأقباط والمشاكل التي كانت تحصل من جهة عدم جواز توريث المخلفين من التسري فعرف أن سبب كل هذه المصائب منع الخطيب من مشاهدة خطيبته قبل العقد أو إكراه الخطيب أو الخطيبة على التزوج بمن لايريدها أو تريده لأسباب عائلية فأشار بوجوب مقابلة الخطيب خطيبته ومشاهدتها قبل عقد النية على خطوبتها وإقرار كل منهما بالقبول بغير إجبار ولا إكراه وبذلك تنقطع المخاصمات من بين العائلات لزوال أسبابها ويعيش الرجل مع زوجته في راحة وسعادة تامتين وتنقطع أيضًا عادة التسري التي كثيرًا ما كان يتسبب عنها نفور بين الأئمة الغيورين والناس.

ورأى أيضًا أن بين الأقباط عوائد لم تكن عندهم من الأصل بل هي دخيلة بينهم منذ تسلط العرب على مصر مثل

حلق شعر الرأس والختان الذي كانوا يحافظون عليه أشد المحافظة حتى أنه ما كان يسمح للطفل بالعماد إلا بعد إختتانه فأذاع بينهم فساد هذا الإعتقاد وأبان لهم أن الختان ليس من الواجبات الدينية المفروضة على كل مسيحي مراعاتها بل هى عادة بلدية يصح إستعمالها وتركها على حد سوى وأشار بتربية الشعر ووجوب كشف الرأس حال الصلاة وتحدث الناس بهذه الإصلاحات فقابلها كثير بالقبول والإرتياح وكان ينتظر أن رجال الإكليروس يشجعونه ويعاونونه على إخراجها من حيز القول ولكنه رأى منهم غير ما كان يتوقعه فإنهم تصدوا له وعدّوا مبادىء الإصلاحات التي كان يشير وينادى بها بدعة وشناعة وشددوا عليه النكير إلا أن ما لاقاه منهم لم يثنه عن عزمه فألف رسائل ببراءته مما يدعون عليه به وصحة رأيه ولما لم يقووا على محاجته وكذلك هو لم يحد عن رأيه قطعوه وطردوه من بينهم وأخرجوه من ديره الموجود للآن بالعدوية بين مصر القديمة وطره وكان من أفخر الديارات المعدودة لحلول كبار الأمة فيه تنزيهًا للنفس وترويحًا للخاطر وكان بجانبه بستان واسع جميل أنشأه هذا القس من ماله الخاص لهذا الغرض فأخرجوه منه قوة وإقتداراً

ووضع البطريرك اليد عليه فعاش بعد ذلك فقيراً ذليلاً ومات حزيناً كئيباً وهكذا ضحى هذا المسكين حياته حباً في الإصلاح. أما البستان فلم يهنأ به البطريرك ولم يبق في حوزته إلا مدة يسيرة لأن الأمير جبريل بن الإمام الحافظ أحد خلفاء الدولة الفاطمية التي نحن بصددها بينما كان يطوف مرة في ضواحي مصر رأى هذا البستان وما كان عليه من البهجة والرونق فأعجبه حسنه ولما علم أنه ليس من مال البطريرك الخاص نزعه من يده وإستولى عليه ووسعه وبنى به منظرة جميلة وجعله منتزهاً خاصاً به وبسائر الخلفاء الفاطميين بعده فكانوا يأتون إليه ويقيمون به أياماً يقوم في أثنائها خدام الدير بتقديم ما يلزم له ولجميع حاشيته من المأكل والمشرب وكل ما يلزم لراحته فيبرحه مسروراً ممنوناً وينعم عليهم بما يزيد عما صرفوه وآخر من حل به الإمام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. ولما إنقرضت الدولة الفاطمية وحلت مكانها الدولة الأيوبية وإستولى أمراؤها على ممتلكات الخلفاء السالفين وحلوا أحباس الديرات والكنائس كان هذا البستان من نصيب طفتكين الملقب بسيف الإسلام أخي الملك صلاح الدين الكردي أول ملوك الدولة الأيوبية

نضم إليه البساتين الأخرى المجاورة له وجميع الجهة المعروفة بالعدوية وساحل البحر وكانت كلها ملكاً للقبط وإستولى على جميعها وكان بتلك الجهة كنيسة تسمى كنيسة السودان إستولى عليها أيضاً وهدمها .

وكان لأبي ياسر بن القسطال صاحب إسرائيلي من عائلة طيبة يسمى الفخر بن زاهر كان عالماً خبيراً شديد التمسك بديانته فكانا يجتمعان كثيراً ببعضهما ويتناقشان ويتباحثان فتمضى عليهما في ذلك أوقات طويلة وكل منهما يحاول إقناع الآخر وإجتذابه إلى دينه وإنتهى الأمر بينهما بأن سحر أبو ياسر الفخر ببيانه وعمله وقوة براهينه فسلم بصحة النصرانية وترك أمته وعشيرته وإنضم إلى الأمة القبطية وتعلم لغتها وأتقنها وكرّز شماساً على كنيسة حارة زويلة وبقي فيها حتى مات ومن ذا تعلم أهمية درجة الشماس وعدم لياقة إتخاذه من الصبيان الصغار كما هو جار الآن .

وظهر أيضاً رجل آخر يسمى مرقس بن القنبر لم يكن دون إبن القسطال في العلم والمعرفة والغيرة فضلاً عن معرفته اللغتين العربية والقبطية وكان يحسن اللغة اليونانية فترجم منها

بعض الكتب ونقلها إلى العربية وألف أيضاً جملة كتب تختص بالإصلاحات التي كان ينادى بها إبن القسطال فأقبل عليه بعض الناس إلا أنه كان سيء التصرف عديم الثبات فسلط عليه الإكليروس بعض كبار القوم فإضطهدوه وعاكسوه وشكوه لقاضى الإسلام فكان تارة ينضم إلى جماعة الروم الأرثوذكس وأخرى يعود إلى الأقباط وأخيراً طردوه من بينهم وفرزوه وكذلك الروم رفضوه ولم يقبلوه عندهم لعدم ثباته وبقي مدة حياته مطروداً .

وبسبب عقم سياسة جماعة الإكليروس وتجبرهم وعدم قراءتهم عواقب الأمور والمحافظة على سلامة الأمة ووحدتها لم يتلافوا الإضطرابات الناتجة عما حسبوه ضلالاً جهلاً منهم والتظاهر بالتمسك بكل عادة قديمة والتمويه على أفكار البسطاء بأن الخروج عنها أو تغييرها أو إبدالها بغيرها مروق من الدين ومقاومتهم لهذين الرجلين وأعوانهما ومعارضتهم لهم بدون تأمل في الإصلاحات التي ناديا بها ومعاملتهما أخيراً بالقطع والفرز فتكدرت خواطر الكثير من إبناء الأمة ولاسيما أعوان هذين الرجلين فآثر بعضهم الإنضمام إلى طائفة الروم الأرثوذكس والبعض

الدين الإسلامي وممن أسلم رجل إسمه الشيخ أبو نجاح بن الراهب فصار يتقلب في الوظائف العالية حتى تسلط على جميع الدواوين وآلى على نفسه إضطهاد الأقباط ومعاكستهم بكل ما يقدر عليه حتى أنه حصل الجزية منهم مضاعفة وتمادى في غيه فعم ضرره جميع الرؤساء والمباشرين فتعصبوا عليه وشكوه إلى الخليفة الذي لما تحقق صدق شكواهم منه وعظم جرمه وتعديه أمر بسجنه وضربه بالنعال حتى يموت وألقى القبض على جميع ممتلكاته فكانت شيئًا كثيرًا .

ويناسب في هذا المقام أن نقول أن كل أمة لا تقوم أو تحفظ جامعتها ووحدتها إلا بعاملين رئيسين هما الدين واللغة ومن الأسف أن هذين العاملين أخذا في الإنحطاط شيئًا فشيئًا بين الأقباط حتى كادا يزولان بالمرة فالأول وهو الدين فقد تأثيره بسبب إهمال الأئمة واجباتهم وإشتغالهم بالأمور العالمية وعدم إكتراثهم بما يوجبه عليهم الدين من القيام ببث التعاليم المؤدية إلى إيجاد رابطة قوية تربط الشعب بروح المحبة والإلتئام والوئام حتى يتضافروا على تعزيز شأنهم وحفظ وحدتهم من التفريق والشتات ولا يتأتى ذلك إلا بسهر الأئمة وعدم تفريطهم في

واجباتهم. أما اللغة فكانت قد هجرت بالكلية وحلت محلها اللغة العربية ولا سيما في القاهرة وسائر الوجه البحري أما في الوجه القبلي فإنها بقيت متداولة مدة ولكنها لم تقو على مقاومة الزمان وتصرفاته وبعد قليل تغلبت اللغة العربية على سائر بلاد القطر المصري و أهملت اللغة القبطية وأصبحت كما هي الآن أثرًا بعد عين ولذلك إنحل رباط الأمة القبطية ولم يبق لها جامعة تجمعها ولا رابطة تربطها فكان هذا مع الأسباب الأخرى الناتجة من إستبداد بعض الحكام وتعصبهم في الأيام الغابرة وما بعدها كما رأيت وسترى أعظم داع لتشتتها وتفرقها فصار يتناقص عددها حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن. وبقي القبط باقي أيام الدولة الفاطمية أى نحو سبعين سنة في راحة نوعًا. ولكن ويا للأسف إذ في خلال هذه المدة قامت الحرب بين المسلمين والإفرنج على ساق وقدم وهي التي تذكر في التاريخ بحروب الصليبيين بالنسبة للصُلبان التى كان يعلقها عساكر الإفرنج في أعناقهم وعلى ثيابهم وكان القصد منها تخليص الأراضى المقدسة من يد المسلمين. وسببها أن راهبًا فرنساويًا يدعى بطرس زار مدينة القدس في الجيل الحادي عشر للميلاد فرأى أن التُرك

الذين كانوا نزعوا سوريا من يد الدولة الفاطمية وإستقلوا بها يسيؤون معاملة النصارى الذين كانوا يتواردون على المدينة سنويًا لزيارة تلك الأماكن المقدسة فشق عليه ذلك ولما عاد أوروبا أحاط علم بابا رومية بما كان من سوء معاملة النصارى على إختلاف نزعاتهم فحرض الباب ملوك الإفرنج على قتال المسلمين ونزع الأراضى المقدسة من يدهم فلبوا دعوته وخرجوا من بلادهم بجيوش جرارة لهذا القصد فحصلت بينهم وبين المسلمين وقائع كثيرة وإستمر القتال بينهم مدة من الزمن أريقت فيها دماء كثير من الفريقين بلا جدوى وإستولى الإفرنج على بلاد كثيرة من ضمنها مدينة القدس ولبثت تحت حوزتهم أكثر من تسعين سنة الي أن خلصها من يدهم السلطان صلاح الدين الأيوبى سلطان مصر.

المصائب التى حلت بالقبط

بسبب حرب الصليبيين

وفي أثناء حروب الصليبيين أتت عساكر الإفرنج إلى مصر وإستولوا على جهات منها وإستمروا في سيرهم حتى صاروا